

بیرل بلک

عذاری المعید

Looloo

www.dvd4arab.com



مؤلفة الرواية

ولدت (بيرل سيدنستريكر بك) Pearl Sydenstricker Buck في بلدة (هيلزبورو) بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا يوم ٢٦ يونيه سنة ١٨٩٢ ، وقبل أن تتم السنة الأولى من حياتها سافرت الى الصين حيث كان أبوها يشتغل بالتبشير . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها التحقت بمدرسة داخلية في شنغهاي . ثم عادت لامريكا بعد سنتين والتحقت بكلية (راندولف - ماكون)

ولما عادت الى الصين قضت بضع سنوات في شمالها ، ثم انتقلت الى مدينة نانكين حيث عملت مدرسة للأدب الانجليزية بجامعةها ، ثم عملت في الجامعة الجنوبية الشرقية ، ثم في جامعة (شنج - يانج)

وفي سنة ١٩٢٥ عادت الى أمريكا حيث حصلت على درجة الاستاذية من جامعة (كورنيل) وفازت بجائزة (لورامنجر) للتاريخ عن موضوع « الصين والغرب »

وأول رواية أخرجتها هي « ريح الشرق » التي ألفتها خلال رحلتها الثانية لامريكا . ثم أخرجت رواية « ريح الغرب » في سنة ١٩٣٠ . وفي السنة التالية أخرجت رواية « الارض الطيبة » فأعجب بها النقاد جميعا ، لدرجة أنها ظلت واحدا وعشرين شهرا في طليعة الكتب الشديدة الرواج

وظهر لها بعد ذلك رواية « الابناء » - وهي تتممة لرواية « الارض الطيبة » - في سنة ١٩٣٢ . وقد وصفها وليم ليون فياز بأنها من المؤلفات الممتازة في العصر الحديث . ثم ظهر الكتاب الاخير عن أسرة وانج في سنة ١٩٣٥ باسم « بيت منقسم على نفسه » . وصارت الروايات الثلاث تباع في مجلد واحد بعنوان « بيت الارض »

وفي خلال ذلك ظهرت لها في سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتها باسم « الام » . كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لاشهر قصة صينية وهي قصة (شوى هوشان) وقد جعلت عنوانها بالانجليزية : « كل الناس اخوة » . وفي سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا « الغنى » و « الملك »

شخصيات الرواية

ملوينير أمريكى مقيم
بالهند
زوجة دافيد
ابن دافيد وأوليفيا
ابنة تيودور الكبرى
مبشر أمريكى فى الهند
زوجة المستر فوردام
ابنة مستر ومسز
فوردام
أحد أثرياء الهنود
زوجة مستر داريا
ابن أحد أثرياء طائفه
السيخ
ابنة أحد الحكام الانجليز
فى الهند
طبيب هندى شاب

دافيد ماكارد :
David Mackard
أوليفيا ماكارد :
Olivia Mackard
تيودور ماكارد :
Theodore Mackard
ليفيا ماكارد :
Livy Mackard
المستر فوردام :
Mr. Fordahm
المسز فوردام :
Mrs Fordahm
رؤى فوردام :
Ruthoi Fordahm
المستر داريا :
Mr. Dariya
السيدة ليلامانى :
Lady Leillamani
جيهار سنغ :
Jehar Singh
آنيز لينلى :
Agnes Linlay
الدكتور جاتان :
Dr. Jatan

القاتل « وكانت ترجمة لحياة أمها وأبيها . وفى سنة ١٩٣٨ كتبت لأول مرة عن الحياة الأمريكية فى رواية « القلب الفخور » ، وكانت الحلقة الأولى لسلسلة روايات عن النساء الأمريكيات

وقد منحتها جامعة (ييل) فى سنة ١٩٣٣ درجة الاستاذية الفخرية فى الآداب . وفى السنة التالية انتقلت الى أمريكا حيث أقامت بها ومنحت ميدالية هوبلز سنة ١٩٣٥ واختارت عضوا فى المعهد الوطنى للفنون والآداب سنة ١٩٣٦ . ثم منحتها الاكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٣٨ « لوصفها الدقيق الواضح للحياة الصينية الريفية » . كما منحت درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة فرجينيا وجامعة سانت لورنس

وفى سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية « الوطنى » . وأعقبها فى سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الأمريكية واسمها « آلهة آخرون » ثم أثرت فيها الحرب فنشرت فى سنة ١٩٤٢ رواية عن أهوالها باسم « بذرة الفول » . وأخرجت تكملة لها فى سنة ١٩٤٣ باسم « الوعد »

ومنذ سنوات صدرت لها رواية « رجال الله » وهى تمثل مشكلة العصر الحاضر ، وهى الصراع المستمر بين الإيمان والقوة . . وقد ألفت بيرل بك كثيرا من المحاضرات ، طبع بعضها فى ثلاثة مجلدات ، كما طبع بعد ذلك مجلدان شمالا قصصا صغيرة كتبتها . وأربعة كتب الفتها خصيصا للأطفال . وقد أسست (جمعية الشرق والغرب) وتولت رياستها ، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين



الفصل الأول

لقاء بين قلبين

وقفت « أوليفيا » على سطح الباخرة في بكور الصباح تنظر الى شواطئ الهند . وكانت السماء فوق ميناء بومباي تتلون تدريجيا بأضواء الفجر الباهتة ، بينما تزداد أضواء مصابيح الميناء خفوتا وضعفا كلما ازدادت أضواء الفجر وضوحا وقوة . أما القمر الذي كان يبدو في أفق المياه البعيد ، فكان كقرص من الفضة يوشك أن يفوس في بحر أسود

وارتفعت عند الميناء غلالات من الضباب الخفيف غلفت المباني الواقعة وراءها ، ولا سيما معالم تلك القلعة القديمة التي تقوم فوق إحدى الروابي ..

وهكذا اجتمعت أضواء الفجر المنساب رويدا ، مع غلالات الضباب الوردية ، مع بقايا أضواء القمر المنحدر الى الماء لترسم أمام « أوليفيا » هذه اللوحة السحرية لتلك البلاد ..

وكانت السفينة قد ألقت مراسيها على بعد ميلين من الشاطئ ، لأن مياه الميناء الضحلة لم تكن تسمح لثل هذه السفن الكبيرة بالوصول الى الأرصفة .. أو هذا على الأقل ما قاله الربان لها .. وكانت الزوارق التجارية في تلك اللحظات تقترب لتحمل الركاب والبضائع والامتعة

وسمعت صوت أحد الضباط المسكرين الشبان يقول لها وهو يمر بجانبها :

— هل أنت مستعدة يا مس ديسارد ؟

وكان شابا انجليزيا أبدي في أكثر من مناسبة ، أثناء الرحلة ، أعجابه الشديد — بل وما هو أكثر من الإعجاب — بهذه الفتاة

الأمريكية الفاتنة الذاهبة الى الهند لتتزوج من أحد رجال الاساليات الأمريكية هناك . وقد حاول في إحدى المناسبات أن يكشف سرها ، فقال لها وهو يراقصها ذات ليلة على نفحات الاوركسترا :

— ان كل ما أرجوه أن تنجني في اقناع خطيبك بالرحيل عن هذه البلاد القاتلة !

وكان هذا الضابط نفسه أحد المغامرين الذين تطوعوا للخدمة العسكرية بالهند ، وهو يرجو ان يعود بثروة طائلة وبمجموعة من النياشين والرتب العسكرية ولهذا قالت له « أوليفيا » : « ولماذا تذهب إليها أنت ؟ »

فقال الشاب بصراحة : « لان الهند أهم ميدان لاعمالنا وأكبر مورد من مواردنا .. »

ثم أردف قائلا بعد برهة تفكير : « وعدا هذا فما جدوى أن يكون الانسان مبشرا بالدين المسيحي في بلاد كهذه ؟ ان الذين يعتقدون ديانتنا هم فقط الذين لا يترددون في التضحية بأى شيء في سبيل كسرة خبز ! »

ولم تجب « أوليفيا » عندئذ ، وإنما قررت ان تستمتع بالرقص بدلا من ان تضيع الوقت في هذا الجدل .. وكانت تعلم أنها لن تجد مجالات للرقص في بلدة بونا التي سوف تستقر فيها كزوجة

تذكرت « أوليفيا » هذا كله وهي تجيب على الضابط الشاب بقولها :

— نعم .. أنا على تمام الاستعداد ..

وتوقف الشاب ، وقال وهو يمد يده مصافحا :

— حسنا .. وداعا .. وحظا سعيدا ..

وكان يعرف وهو يلمس يدها أن هذه هي — على الأرجح — آخر مرة يراها فيها

وتقدمت الى سطح احد الزوارق البخارية بعد ساعة ، وتبعها امها المسز ديسارد .. وانطلق الزورق على زبد الموج في طريقه الى رصيف الميناء ..

وقالت « أوليفيا » في لهجة أمرة :

— اجلسي يا اماء ..

وجلست الام وهى تحاول جاهدة أن تخفى امارات القلق الشديد المرتسمة على وجهها المغضن . لقد رفضت في اول الامر أن تصحب ابنتها الى هذه البلاد البعيدة التى لا تعرف عنها شيئاً .. لكن قلبها لم يطاوعها على ترك ابنتها تذهب بمفردها الى هذه البلاد لتتزوج شابا لا تكاد تعرفه فقررت أن ترافقها .. وبسبب هذه الحالة النفسية ، لم تستمتع بلحظة واحدة من الرحلة ، ولم يكن من المنتظر أن تنعم بلحظة واحدة طيلة اقامتها في الهند . لقد سمعت انها بلاد شديدة الحرارة ، ولم يكن يضايقها في الحياة شيء مثل الجو الحار . أما الحشرات السامة ، والزواحف القاتلة — ولا سيما الافاعي — فكان مجرد ذكر اسمها كفيلا بافزاعها الى حد الاعماء !

لهذا قررت ان تعود الى وطنها بمجرد ان يتم زواج ابنتها ..

ولم تكن « اوليفيا » قد جلست رغم انها امرت امها بالجلوس . وانما ظلت واقفة معتمدة يديها على السياج ، ترسل النظر الى الرصيف الذى كان الزورق يقترب منه بسرعة ، غير مبالية بحرارة الشمس التى أخذت تشتد بسرعة بالغة

انها سوف ترى « دافيد » بعد بضع لحظات للمرة الاولى ... وان الشيء الكثير من سعادتها او سقائها سوف يتوقف على هذه النظرة الاولى . حقا انها راته وعرفته سنوات حتى بلغ العشرين من العمر — وهو في نيويورك — ولكنها لم تره مرة واحدة طيلة عشرة اعوام كاملة .. اى منذ ان رحل الى الهند مع ابيه مهيض الجناح ، لانها رفضت ان تبادل له الحب الذى ينتهى الى الزواج !

لقد كان — وهو في العشرين من عمره — لا يبدو في عينها اكثر من غلام مراهق . وكان صديقا لها طيلة المرحلة الدراسية ، وكانت تحبه كصديق عادى ترتبط أسرته واسرتها بوشائج الجوار والصداقة ...

ولكنها فوجئت به وهو يضع قلبه بين يديها ، ويسكب حبه امامها وهو راكع على ركبتيه . فلما أشفتت عليه ، وأوضحت له برفق انه ليس الصورة التى تمثلها عن فارس أحلامها ، انظوى على نفسه ثم قرر ان ينضم الى ابيه الليونير « هارد ورث ماكارد » الذى جمع

ثروة طائلة من أعماله التجارية بين الهند وامريكا ..

واعجبها منه هذا القرار الذى يدل على الحزم وقوة النفس ، فراحت تراسله كصديق في اول الامر ، ثم كمعجبة بنجاحه في ميدان الاعمال بالهند ، ثم كمتحمسة لمشروعاته الانسانية التى قرر ان يكرس حياته من أجلها في هذه البلاد الواسعة الضخمة ..

لقد عرفت من رسائله في الاشهر الاخيرة انه قرر أن يهب حياته للهند ، وأن يعيش فيها مبشراً ، لا بالدين ، وانما بالحضارة والعلم والمعرفة والثقافة ومحاربة الخرافات والاساطير !

ولما لم تجد في تلك الفترة الطويلة التى امتدت نحو عشر سنوات فارس الاحلام الذى تخيلته يوماً ، أدركت أن « دافيد » هو فعلاً فارس الاحلام بعد ان تحول من فتى مراهق مدلل ، الى رجل له رسالة واضحة نبيلة في الحياة ..

وما كاد يعرض عليها الزواج في رسالته الاخيرة ، حتى قررت ان تبحر اليه في اول باخرة ..

ولكن .. هل سيفتح قلبها عند رؤيته بعد هذه السنوات الطوال؟ ان النظرة الاولى — أو على الاصح اللقاء الاول — هو الذى سيحدد موقفها نهائياً ...

فاما أن تتزوج ، وتهبه نفسها الى الابد ..

واما ان تعود الى وطنها على نفس الباخرة بعد ثلاثة ايام .. وراته في تلك اللحظة .. كان على رصيف الميناء ، طويلاً ، نحيل الجسم ، في ملابس اوروبية بيضاء ، وقبعة شمس عريضة الحافة ، ومن حوله جموع متزاحمة من المستقبلين ..

واوحت له بمنديلها الحريري الاخضر .. فلما لمحها ، رفع قبعته محبياً باسمها ..

وظل الاثنان يتبادلان النظرات برهة بعد ان وصل الزورق الى الرصيف .. وكأنهما كل منهما يبحث في الاخر عن شيء لا يستطيع ان يراه ! وقالت لنفسها : هل تغير ؟ .. انه يبدو أطول كثيراً مما كانت تذكر .. او لعلها البذلة التيلية البيضاء .. او لعلها هذه اللحية الانيقة البنية اللون التى تحيط بوجهه وتضفي عليه سمات رائفة من الجد والوقار ، وتجعله شديد الاختلاف عن الغلام المراهق الذى

وظل هو واقفا في مكانه لا يريم .. عاقدا يديه امامه ، منتظرا ان يوضع السلم بين الزورق والرصيف ، فلما تم هذا ، تقدم بخطوات سريعة نحوها .. وعندئذ شعرت بقلبي يخفق بعنف ، وهي تذكر انها وضعت نفسها بين يدي رجل ، وفي بلاد ، لا تكاد تعرف عنهما شيئا .. ومع ذلك فقد احست وهي تراه قادما نحوها ، بقامته الطويلة ، وخطواته التي تتم عن القوة والصحة انها لن تندم على ما فعلت ..

واقبل عليها ، ومد يديه نحوها في بساطة ، وقال وهو يقبل خدها : « أوليفيا .. حبيبتي ! »
ولمحت في عينيه بريق الحب الدفين ، فازداد قلبها خفقانا وهي تهمس : « دافيد »

ولم يكن في مقدورها ان تقول او تفعل اكثر من هذا امام ذلك الجمع المتزاحم .. ومن ثم وقفت ممسكة بيده ، بينما اقتربت امها منهما لتصافح « دافيد » وتقول له :

— اننى سعيدة برؤيتك يا « دافيد » .. لقد كانت رحلة طويلة مرهقة . اذن فهذه هي الهند .. يا الهى !
ثم لوحت بيدها نحو الشاطئ وأردفت قائلة :
— يا الزحام المزعج !
فقال دافيد ببساطة :

— ان الزحام في كل مكان بالهند .. ولكن الانسان يعتاد عليه ... والهنود في الواقع قوم طيبون ودودون ... أين الحقائق يا أوليفيا؟! يجب ان نمر بها من الجمر

واشار الى حمال جاء به من فندق « جراند » الذى حجز فيه ثلاث غرف ، ثم اصدر اليه تعليماته . وفي خلال ذلك كانت « أوليفيا » تدرس « دافيد » ، فوجدته يختلف تماما عن الفلام الخجول الذى عرفته .. انه الان رجل واثق من نفسه ، بل يكاد يكون على شيء من التعالي وقوة النفوذ .. صورة للرجل الذى طالما حلمت به !

ولما فبرغ من الحمال ، قال لها في لهجة تتم عن السيطرة :
— يحسن ان نبتعد عن الشمس .. ان لنا سيارة في الانتظار

خارج منطقة الميناء .. وبعد ان تستريح في الفندق ، نستطيع ان نفكر فيما ينبغي ان نفعله بعد ذلك . وانى اتمنى ان تكون لديك الرغبة للذهاب الى بونا في اسرع وقت ، لان الجميع هناك متلهفون الى رؤيتك ..

وأردف قائلا وهو يتقدمهما نحو السيارة ، بعد ان سلم مفاتيح الحقائق الى حمال الفندق :

— ان الهنود ليسوا اكثر امانة من غيرهم من بنى البشر . ولكنك اذا وثقت بواحد منهم وعهدت اليه بعمل ما ، فانه يؤديه بأمانة ليس لها نظير !

وكانت « أوليفيا » تبدو له كفتاة غريبة عنه .. لقد تغيرت هي ايضا كثيرا .. تفرقت الى احسن .. ازدادت جمالا ونضوجا وجاذبية .. ترى هل ستوافق له الجراة — حين ينفرد بها — على اخذها بين يديه ، والتهام شفتيها بهذه القبلة الحارة الطويلة التى عاش هذه السنوات كلها يحلم بها !؟

لقد تمنى ذلك منذ ان وقعت نظرته عليها ، ولكنه لم يستطع .. لقد تعلم من المسز « فوردام » — زوجة راعى كنيسة بونا — ان الهنود لا ينظرون الى هذه الفراشيات بنفس البساطة التى ينظر بها الغربيون .. وانه لا يزال يذكر قول المسز « فوردام » فى هذا الشأن :

— ان الهنود لم يالفوا بعد حريتنا فى ممارسة العلاقات الجنسية .. بل انهم لا يقبلون ان يروا شابا — ولو كان اوروبيا — ينفرد مع أبة فتاة ، ولو كانت اوروبية ، فى مكان عام . ولهذا ارجو ان يتم الزواج بينك وبين خطيبتك عند حضورها فى اسرع وقت ..

وركب الجميع السيارة ... وأحس « دافيد » بجسم « أوليفيا » ملتصقا بجسمه رغم الملابس .. وخيل اليه ان دمائه تحولت الى نيران تتدلغ فى عروقه ، ولكنه لم يستطع الا ان يتناول يدها بين يديه ثم يتحسسها فى رفق وهيام ، وهو يحلم باللحظة التى ينفرد فيها معها ..

وحانت هذه اللحظة عندما صعد معها الى الغرفات المحجوزة بالطابق الثانى من الفندق . وكانت مسز « ديسارد » قد دخلت

عنها - بعد نظرته الاولى اليها عند دخولها - حتى لا يشير نفور الهنود منه . وكانت المسز « فوردام » - زوجة القسيس - تسيّر بجانبها ، بينما راحت احدى فتيات الارشادية تعزف على الارض اثسودة الزفاف . .

وتوقف العزف اخيرا ، عند ما وقفت « اوليفيا » مع « دافيد » امام المستر « فوردام » الذي راح يقوم بمراسم عقد الزواج . .
اما المسز « ديسارد » - أم العروس - فقد كانت واقفة ترعد ، وترجو ان يتم الزواج بسرعة حتى تستعد للرحيل الى بلادها . .
ذلك لانها عثرت - في ذلك الصباح فقط - على عقرب بين ملابسها ولولا انها فطنت اليه قبل ان يلدغها ، لحدث ما كانت تخشاه من بقائها في الهند . .

وراحت تفهم لنفسها ، وهي تسيّر وراء العروسين في طريق الخروج من الكنيسة : « بعد اسبوع - لا . . بعد يومين اثنين - ساكون في طريق العودة الى وطني »

وقالت « اوليفيا » بعد ان مضى على زواجها اربعة ايام :
« مسكينة أمي »

وفوجيء « دافيد » بهذه العبارة ، فقال لها : « لماذا ؟ »
فاشارت « اوليفيا » الى الاكام الخضراء المحيطة ببلدة بونا ، وقالت :

- لاني كنت اتمنى لو انها رات هذا الجمال كله . . انها بعد ان رحلت ، لن تصدق ان الهند ليست كما تصورتها !

فقال « دافيد » : « ولكن الكثير في الهند لا يختلف عما تصورته »
فقالت « اوليفيا » في اصرار : « مهما تكن المساوىء والوان التخلف ، فانها بلاد ساحرة بفضل هذا الجمال »

وكانت « اوليفيا » تتحدث وهي تشعر بالسعادة الفامرة . .
سعادة الفتاة التي عرفت اخيرا انها تحب حقاً ، وكانت تخشى ان يكون حيا مجرد وهم اوسرابل . . انها تعرف الآن ان « دافيد » يحبها بكل ما يملك من طاقة على الحب ، وتعرف في الوقت نفسه انها تبادل هذا الحب باقوى منه . . بل انها لا تصدق ان هذا الرجل

الفرقة المخصصة لها لتشرّف على وضع الحقائب في اماكنها . ودخل هو مع « اوليفيا » الفرقة التالية ، ثم اغلق بابها بقدمه ، وقال :
- هذه هي غرفتك يا « اوليفيا » . . اما غرفتي فهي في الجانب الاخر . .

ثم تناولها فجأة بين ذراعيه ، وقبل فشتيها تلك القبلة الحارة الطويلة التي عاش سنوات يحلم بها . . !
وسمع صوت المسز « ديسارد » تقول :
- « اوليفيا » ! اين انت ؟ ان الحممال يريد ان يحمل اليك حقائبك . .

وانتزع « اوليفيا » نفسها من ذراعي « دافيد » بسرعة وهي تلهث . . ولكنها استطاعت قبل ان تنصرف من الغرفة ، ان تلقى على « دافيد » نظرات كلها الحب ، والرضى ، والامل في الساعة التي يفلق عليهما فيها باب واحد . .
واحست ان كل شيء سوف يسير على خير ما تحب وترجو . .

وتم الزواج بعد اسبوع . .

وامتلات كنيسة بلدة بونا بعدد كبير من الهنود المسيحيين . .
وكانوا جالسين - كالعتاد - على ارضية صحن الكنيسة ، يتهايمسون ويتبادلون الآراء عن هذه الامريكية الحسنة الرقيقة التي جاءت من « آخر الدنيا » لتتزوج الشاب الامريكي ، ابن المليونير ، الذي كرس حياته من اجلهم . .

وسارت « اوليفيا » في العمر الضيق بين الجموع الجالسة في ازدحام . ولم يكن يبدو على وجهها انها ترى شيئاً من الوجود المرفوعة اليها ، او المطلقة عليها من خارج النوافذ . . وانما كانت نظراتها مركزة على وجه « دافيد » الواقف بجوار المحراب في انتظارها ، بينما وقف بجانبه صديقه الهندي الثرى « داريا » وعلى يمينه وقف المستر « فوردام » في ملابسه الكهنوتية استعدادا لعقد القران

وكان وجه « اوليفيا » شاحبا ، وهي تسيّر مرفوعة الرأس . .
ولكن احدا لم يلاحظ شحوبها وهي تسدل على وجهها هذا النقاب الابيض الشفاف . اما « دافيد » ، فقد حرص على ان يشيح بنظراته

القوى المسيطر على كل من حوله ، هو نفسه ذلك الفلام المراهق الخجول الذي وضع يوما قلبه عند قدميها ! .. ان سعادتها لا تنبع من حبها فقط .. وانما من استعدادها لان تهب نفسها ، وحياتها ، وكل نبضة في جسمها لهذا الرجل القوي الناضج الرزين الذي جعلها تحرف منذ اللحظة الاولى بعد الزواج ، ان حياتها معا لن تكون حبا خالصا ، وانما سيمتزج فيها الحب بالعمل ، والعمل بالعبادة . . وان من حقها ان ينفرد بنفسه كلما اراد ، وان عليها الا تظن ان حبه لها قد فتر او ضعف اذا انتزعت شواغل العمل منها ساعات او اياما باكملها .. !

وقاض الحب في قلبها في تلك اللحظة ، فلم يسعها الا ان تخفف منه حتى لا تختنق ، فقالت وهي تطوقه بذراعيها : « لشد ما احبك يا دافيد ! »

وكانا عندئذ جالسين في شرفة منزل « دافيد » الجبلي .. وكان المنزل يقوم على ربوة مرتفعة تحيط به الاشجار العالية التي تكاد اغصانها ان تظلل سقفه ، وكانت المناظر الطبيعية من تلال وآكام ووديان وانهار تحلب الالباب ..

وتنهضت من مكانها ، وركعت امامه .. ودفنت وجهها في حجره وهي لاتزال تغمغم : « اننى اكاد ا فقد عقلى من فرط الشعور بحبك ! » ورفع وجهها في رفق ، ونظر الى عينيها ، وراى فيهما الحب ، بل التقديس ، مطلا بوضوح . وخامره الشك برهة .. انه لا يكاد يصدق ان هذه هي « اوليفيا » نفسها .. « اوليفيا » التي احبها الى درجة العبادة يوما ولكنها سخرت من حبه .. اما الآن ، فانها ، بفضل الله ورحمته - اصبحت تبادل هذا الحب بما هو اقوى منه !

لا شك ان الله انعم عليه بهذا كله ، لانها لو لم تستسلم له تماما ، وتمتدح بحبها له على هذا النحو الواضح الصريح ، لاضطر الى بذل الجهود المضنية ليظفر بحبها في النهاية .. حبها هذا الواضح . ولكن هل كانت اعماله وشواغله الكثيرة ، ورسالته التي يعيش من اجلها ، تتيح له ان يبذل مثل هذه الجهود ليظفر في النهاية بحب المرأة التي تزوجها ؟ !

شكرا لله ! ..

انه الآن مطمئن الى حبا .. انه في غير حاجة لان يبذل اى جهد كى يظفر بحبها .. ان له الآن مطلق الحرية في ان يحقق رسالته بقلب خال من الشكوك والاوهام .. وان حبه لها - من ثم - لون من العبادة والقداسة لانها لم تحاول ان تفنيه فيها . ان قلبه سوف يظل هادئا صافيا مكرسا لعبادة الله ، لا لعبادة « اوليفيا » . وانه لهذا يشعر بالرضى والسعادة .. لانه استطاع ان يحقق التوازن بين حبه لـ « اوليفيا » وحبه لله ..

وقال لها اخيرا ، وهو ينظر الى عينيها المبتهلتين :

- احمد الله لانك تحبيننى على هذا النحو ..

فقالت بدهشة :

- ولماذا تحمد الله ؟

- لانك لو لم تحبيننى هكذا لكان هناك احتمال كبير في ضياع وضباع آمالي في الحياة .. !

ولم تستطع ان تفهم حقيقة ما كان يعنيه من هذه العبارة .. لم تستطع ان تدرك ان هناك - في اعماقه - من ينافسها في حبه لها .. وانها ليست الاولى في عواطفه .. فهي ، اذا كانت قلبه ، الا انها ليست روحه !

وهمست له قائلة : « خذني بين ذراعيك »

واخذها بين ذراعيه وهو مطمئن الى ان احدا لن يراهما في ظلال الغروب .. وظلا هكذا برهة حتى تحول شفق الغروب بسرعة الى ظلمة الليل .. وكانت السعادة تتدفق في قلوبهما .. سعادة الرجل والمرأة المرتبطين بعقد الزواج ، واللذين من حقهما ان ينعموا بالحب ، وبكل ما في الحب من متع ولذات !

ولم يشعر - وهو يحملها بين ذراعيه الى المخدع - بأنه يخون رسالته او عبادته لله .. وانما شعر انه - بمثل هذا الحب المشروع - يزيد من قوته وعزمته لتحقيق رسالته ، ويزيد من تطهير جسده ، لتزداد روحه صفاء وتألقا واشراقا ..

ودهشت « اوليفيا » حين وجدت نفسها تحب نفسها ، او على الأقل ، هذه البقعة من الهند . وكان الخدم في كل صباح -

يحملون إليها الشاي بأسلوب ينم عن الخبرة الطويلة في الخدمة الممتازة . وقد تراخت في هذا الصباح في فراشها الوردي الوثير تنتظر حضور الخادم بخطواته الهادئة ، حاملا الشاي واللبن والقطاير والزبد . وكان الخادم - وهو ابن الطاهى - غلاما يافعا ، أسمر اللون ، باسم الوجه دائما . فلما وضع ما يحمل على التند القائم بجوار السرير ، قالت بصوت ناعس : « شكرا »

وتراجع الخادم في حذر حتى لا يقطع عليها نعاسها .. وكان « دافيد » قبل ذلك بساعة ، قد غادر الفراش الكبير ، ومضى - بعد أن اغتسل - ليتنضم هواء الفجر الندي ، ثم ليجلس الى مكتبه بعد ان ادى عبادات الصباح ..

ونفضت هي - اخيرا - من فراشها ، وفحصت الشيبب القضى قبل ان تضعه في قدميها خشية ان تكون في داخله حشرة سامة . فلما اطمانت ، انتعلته ثم وقفت امام المرآة لتصفف شعرها وهي تشعر بالحرارة الشديدة تسرى في الغرفة الفسيحة ، رغم انه لم يكن قد مضى على شروق الشمس غير ساعة واحدة ..

وقصدت الحمام بعد ذلك ، فافتسلت بالماء الساخن ، ثم نظفت اسنانها وهي تستعمل ماء مغليا في ابريق .. لانها تعلمت منذ اللحظة الاولى انه من الخطر الشديد ان تستعمل ماء - ايا كان الغرض منه - دون ان يغلى جيدا

وعادت الى غرفتها ، وراحت ترتدى ملابس الصباح .. وكانت وهي ترتديها تحتسى الشاي الهندي العاطر ، وتقضم الخبز المجرم المغطى بطبقة من الزبد المستورد في علب من استراليا

وغادرت الغرفة تاركة وراءها كل شيء ليرتبه الخدم .. وكان الخدم في البيت كثيرين ، لا تعرف لهم عددا .. بعضهم مأجور ، وبعضهم يكتفى بتناول فضلات الطعام نظير خدمته . ولم تحاول هي ان تعرف عدد هؤلاء الخدم . ولعل المسز « فوردام » لم تكن راضية عن تصرفاتها هذه التي تتسم بالبدخ ، والتي لا تتناسب مع تصرفاتها هي - المسز فوردام - التي تدير بها شئون بيتها في حدود مرتب زوجها القسيس . اما « أوليفيا » فكان الامر معها على العكس . لقد وضع المسز « ماكارد » العجوز ، والد « دافيد » ، رصيذا ضخما في

بنك بومباى ليكون تحت تصرفها هي وزوجها . ولم يكن عليها الا ان تطلب من المال ما تريد ، فيكون تحت امرها فورا . وقد سعدت هي بهذا كله ، ولا سيما وقد ادركت ان « دافيد » لا يحاسبها على شيء .. بل ولا يسألها - في الناحية المالية - عن شيء ..

ولما حاول المسز والمسز « فوردام » ان يلفتا نظره الى بدخ « أوليفيا » الذي لا يتفق مع حياة الذين يكرسون انفسهم لاهداف سامية في الحياة ، قال لهما في حزم :

- لقد طلبت من « أوليفيا » ان تكون زوجتى لان تكون مبشرة ، لان هذا ليس في مقدورى !

وقد حاولت « أوليفيا » كثيرا ان تكسب رضاء رجال ونساء الارشالية المتزمتين .. وكانت تميل فعلا الى المسز والمسز « فوردام » وتعرف انهما طيبان ، وان كانا يجبان ان يصلحا امور الناس على طريقتهما الخاصة ..

وهزت « أوليفيا » كتفيها وهي تتذكر الجهود التي يبذلها رجال ونساء الارشالية لتحويل هؤلاء البؤساء الفقراء المعدمين الى مسيحيين .. لانها في قرارة نفسها ، كانت تعتقد ان هذه الجهود كلها ضائعة مع هؤلاء المشوذين من الديانات الاخرى ..

ولهذا السبب نفسه ، سألت « دافيد » ذات مرة لماذا لم يحاولوا ان يحولوا ذلك الهندي الثرى الذكى المسز « داريا » الى المسيحية ، لا سيما وقد ادركت ان هذه احدى امنيات المسز والمسز « فوردام » . فأجابها قائلا :

- لقد عرف كيف يرد علينا « داريا » ردا أسكتنا عندما جادلناه في هذا الشأن يوما .. قال ان عقيدة الانسان شيء يخصه كالزواج تماما .. ومادام هو يابى ان يتدخل لكى يحول احدنا الى الهندوكية مثلا ، فكذلك ينتظر الا يتدخل احد ليحاول تحويله الى المسيحية

وقد اجابت « أوليفيا » على « دافيد » عندئذ :

- أرجوك اذن ان تترك داريا وشأنه ..

ورغم انها تعرفت بذلك الهندي الذى ينتمى الى طبقة السادة الارثاء جدا - اى المسز « داريا » - منذ اول يوم وصلت فيه الى بونا ، فانها لم تكن قد تعرفت بعد بزوجته « للامانى » . وقد قال

لها في هذا الشأن يوما :

— عندما تستقر بك الامور هنا بعد شهر العسل ، سوف يكون لي شرف دعوتك الى بيتي لتتعرقي على « ليلا مانو »
وقد سألت « أوليفيا » زوجها « دافيد » في اليوم السابق فقطع ،
لماذا لم يدعها « داريا » الى بيته كما وعد ، فقال لها :
— ان « داريا » يحب دائما ان يفعل ما يحلو له يا « أوليفيا » ..
وما عليك الا ان تتدعى بالصبر ..

وكان — وهو يجيب عليها — يبدو بعيدا عنها بأفكاره ، حازما في نيرات صوته ، شاردا بنظرانه .. لقد كان في تلك اللحظة « دافيد » ذا الرسالة الانسانية ، وليس العاشق الولهان .. ولكنها من سعادتها لم تغضب أو تحزن

وغادرت الفرقة وهذه الذكريات تدور براسها .. وسارت على غير هدى في غرف البيت حيث لاحظت — كالمعتاد كل صباح — ان الخدم اغلقوا الخصائص الخشبية للتوافذ ليمنعوا وهج الشمس من التسلل الى الداخل .. ومن تم بدا البيت ظليلا ، وان يكن رطيبا اما الارضيات الخشبية فكانت لامعة مصقولة ، والاناث نظيف ، وأنية الزهر وضعت بها زهور جديدة ناضرة .. وظلت تسير في جنبات البيت الذي كان انائه بسيطا خفيفا دقيبق الصنع ، لان « أوليفيا » اعربت في رسائلها لـ « دافيد » عن تفضيلها لهذا اللون من الاناث ، وانها لا تطيق البيت المزدهم بالاناث الضخم الثقيل

وكانت تبحث عن « دافيد » وهي تعلم ان الامسل ضعيف في العثور عليه ، لانه قد يكون في تلك اللحظة — كعادته — في اى مكان .. في ركن من المنطقة التى سيقم فيها مشروعاته الكبيرة ، أو مع زائر مبكر في ركن من الحديقة الواسعة ، أو مع أحد مهندسى مشروعاته المعماريين ..

وكانت « أوليفيا » تعلم ان « دافيد » ، مثل ابيه ، قد قرر ان يشق طريقه في الحياة معتمدا على نفسه ، مستقلا برأيه .. ولكن من أجل هدف مختلف جدا .. فاذا كان والده قد نجح في تحقيق هدفه ، وجمع ثروة لا يعرف هو نفسه مقدارها على وجه التحديد ، فان

« دافيد » كان يعتزم تحقيق هدف من نوع آخر .. وهو ان يقيم أكبر وحدة ثقافية علاجية دينية في بلاد الهند كلها . وكان يرجو ان تغدو هذه الوحدة حديث الهند كلها بفضل ملايين « آل ماركارد » .. ولكن .. ماذا كان في مقدور « دافيد » ان يفعل مثلا لو انه كان ابن رجل فقير ؟ !

هكذا سألت « أوليفيا » نفسها دون ان تعرف الاجابة .. !

وعثرت عليه جالسا الى مكتبه الضخم الذى أعده خصيصا ليدرس عليه مشروعاته مع معاونيه .. وكان الجالس معه في تلك اللحظة مهندسا معماريا شابا مولدا — من والد انجليزى وأم هندية — وكان الاثنان مشغولين بدراسة انشاء دار أخرى لاقامة الطلبة .. وهى دار رأى « دافيد » اضافتها الى المشروع ..

ورأها الشاب المولد أولا .. وكان شابا طويلا رشيق القوام خمري البشرة ، تم زرقه عينيه ولون شعره البنى عن حقيقته كابن لرجل انجليزى وأم هندية .. وكان — فضلا عن جنسيته الانجليزية — يحرص على ان يبدو انجليزيا في كل شيء .. يذكر دائما اياه ، ويتعمد دائما اغفال ذكر أمه !

قال لها بلهجته الانجليزية السليمة التى تتم عن دراسته في اكسفورد :

— طلبة صباحك يا مسز « ماركارد » .. لقد كنت أرجو ان تأتى فى اية لحظة ، لاني أعلم ان لك ذوقا رفيعا فى الشؤون الهندسية ، وليس أحب للمهندس منا ان يبصره انسان مثقف مثلك ببعض أخطائه

وابتسمت « أوليفيا » ومدت يدها ، وهى تشمر بقوة فتنتها وروعة جاذبيتها .. لقد جعلتها الهند أكثر أوثق وفتنة ، فتراحت عضلات جسمها بعض الشيء فلم يعد مشدودا أو متوترا .. وامتلأت شفاتها قليلا ، فلم تعودا مزومتين كما كانتا من قبل . ولكن ، ربما رجع هذا الى زواجها من الرجل الذى وهبته قلبها مع جسمها .. ومهما كان السبب الذى جعل « دافيد » رجلا قويا مسيطرا واثقا من نفسه ، فانها تشمر بالسعادة الغامرة لخضوعها له ، واستسلامها بين يديه . ويبدو انها عاشت حياتها تحلم بالرجل الذى تخضع له ، وهما هو ذا حملها أخيرا قد تحقق



وقال لها « دافيد » بعد أن فرغت من مصافحة المهندس الشاب :
- طاب صباحك يا « أوليفيا » ..

وكان حريصا على ألا يكشف عن حبه العميق لزوجته أمام الهنود
أنفوسهم .. ثم أردف قائلا :

- اجلسي وزودينا بأرائك كما يقول « رمزي » .. لسوف أشرح
لك الفكرة أولا .. انني أريد أن أقيم هنا ..

ثم أشار بيده الى مساحة على الخريطة ، واستطرد يقول :

- .. بنائية مربعة ضخمة تتوسط فناءها الكبير نافورة من المرمر تنبثق
منها المياه على اشكال مختلفة .. انني احرص على تزويد المباني التي
أقيمها بمظاهر الجمال التي تغري الشبان والفتيات بالحضور اليها
فقال « أوليفيا » وهي تنحنى عليه ، وتشعر بالمتعة من الضفط
على كتفه :

- وماذا بعد أن توقع بهم في مصيدتك ؟

فقال بحماس :

- سأعرف كيف أجعلهم ينظرون الى الحياة هذه النظرة السليمة
التي لا تميز بين البشر وتجعل من بينهم فريقا من المنبوذين

فهز « رمزي » كتفيه في ارتياح ، وقال :

- لسوف تحدث خلافات كثيرة لهذا السبب ، لان الذين سيحضرون
اليك هم من الطائفة التي يتهددها التبدد بين الحين والآخر .. ان طائفة
المارائي كما تعلم يا مستر « ماكارد » طائفة قوية واسعة النفوذ ولكنها
متشعبة بالاساطير والخرافات .. ويكفي أن تنطلق خرافة عن مشروعائك،
فتجعلهم يتشاءمون منك ، فينهار كل شيء

فقال « دافيد » ببساطة : « سوف نرى .. »

وقالت « أوليفيا » وهي تزداد بصدورها ضفطا على كتف زوجها
وتشير الى علامة على الخريطة :

- وما هذه العلامة .. ؟

- انها المكان الذي أريد أن أقيم فيه دارا لاقامة الطالبات

وتدخل « رمزي » المهندس الشاب ، قائلا في صوت ينم عن
الاحتجاج :

- انني لا أحب أن أنتقد احدا بطبيعتي .. ولكني أشعر يا مستر

« ماكارد » انك متفائل اكثر مما ينبغي .. فانا لا أتصور أن الهنودسوف
يرسلون بناتهم للاقامة في مكان يقيم فيه الشبان !
فقال « دافيد » بصوت حازم :

- مادمت قد آليت على نفسي أن أساهم في نهضة البلاد والعمل على
مساريتها لركب الحضارة والمدنية ، فلا بد أن أواجه جميع الاحتمالات ..
وانني اعتقد أنه لا جدوى من أية محاولة ، مالم تكن المرأة متعلمة ،
بعيدة عن الخرافات واهام الجهالة ..

وبعد أن تبادلوا بعض الراء في هذا الشأن ، استأذن المهندس الشاب
في الانصراف .. وبعد خروجه قالت « أوليفيا » في عطف :

- مسكين « رمزي » هذا ! .. انه يحاول جاهدا أن يكون انجليزيا
فرد زوجها قائلا :

- هذه حماقة منه .. انه بهذه المحاولات يثر سخط الهنود عليه ،
وفي الوقت نفسه لن يكون في نظر الانجليز الا رجلا مولدا ..

فهزت « أوليفيا » كتفها وقالت :

- ليكن ما يريد أن يكون .. ان له الحرية في اختيار طريقه

ثم تلكأت قليلا وهي ترجو أن يتذكر « دافيد » قبلة الصباح ..
واذا به ينهض ويبسط ذراعيه اليها ، فترتمى بين أحضانها ، وتغيب
معه في قبلة حارة

وكانت تلك الاشهر الاولى من الحب عذبة الى حد يدير الرأس ،
ويملأ القلب بشيء من الخوف مما قد تأتي به الايام .. لان الانسان
بطبعه يشعر أن القدر لا يرضيه قط أن ينغمس الانسان - أي انسان -
في عدا اللون من السعادة المطلقة !

وظلا في غيبوبة العناق حتى سمعا وقع أقدام تقترب من باب غرفة
المكتب ، فأسرعا بالانفصال .. وما لبث أن أقبل أحد الخدم يحمل
رسالة على صفحة من الغضفة

وفض « دافيد » الرسالة ، ثم قال بعد أن قرأ سطورها القليلة :

- انها دعوة من صديقنا « داريا » لتناول العشاء معه الليلة ..



الفصل الثاني

ليلا في الحساء

كان « داريا » واقفا لاستقبالهما عند بوابة قصره الفاخر .. وقد لاحظت « أوليفيا » في تلك اللحظة أنها ترى « داريا » الهندي الضمير ... ولم يرجع هذا الى ملبسه الوطنية التي كان يرتديها - رغم أنها كانت فاخرة - وانما الى نظراته ، وسماته ووقاره ، وتصرفاته التي تحررت من تلك السطحية السابقة ، والى تحيته لها ولزوجها بوضع كفيه متقابلين أمامهما بالطريقة الهندية التقليدية .. وهي التحية التي ترمز - كما قال لها يوما - الى ايمان الانسان بوجود ذلك القبس الالهي في النفس البشرية . ولكنها شعرت ، مع ذلك ، أن هذه التحية التقليدية جعلته يبدو غريبا عنها ، ومن ثم خامرها شعور بالخجل والارتباك ، وقد حاولت أن تخفي هذا الشعور ، ولكنها لم تستطع !

وقال « داريا » بوقار :

- تفضلا بالدخول .. مرحبا بكما في بيتي ..

وتقدمهما الى غرفة فسيحة ذات ستائر مسدلة على النوافذ ، وسجادة فاخرة مبسوطة على الارض .. فوقها حشايا من ريش النعام المكسو بالحرير الفاخر . وبعد أن دعاهما للجلوس ، جلس بجوارهما ، وصفق بيده .. فاقبل الخدم يحملون صحاف الفاكهة والحلوى والشراب المعطر ، ووضعوا هذا كله أمام الضيفين .. وبعد أن تحدث المضيف مع أحد الخدم بصوت خافت ، دعا ضيفيه الى تناول الطعام ..

ولبي « دافيد » الدعوة ببساطة .. ودهشت « أوليفيا » ولكنها حذت حذوه .. ورغم أنها لم تكن قد ذاقَت ألوان الطعام الهندي من قبل ، الا أنها وجدتُها لذيذة .. ولا سيما أصناف الحلوى من فطائر صغيرة ورقائق ناعمة وكعك مصنوع بالشهد .. وكرات خبز محشوة

بالحلوى المعطرة .. هذا عدا ثمار الفاكهة الغريبة المصفوفة على أوراق الشجر بنظام بدیع ...

وقال « دافید » متبسطة :

— ان هذا كله لتكريمك يا « أوليفيا » .. فان « داريا » لم يسبق ان احتفى بى على هذا النحو من السخاء !

ونظر الى « داريا » معابنا .. وضحك المضيف عاليا ، ثم رفع العمامة الفاخرة عن رأسه ، ووضعها بجانبه ، وراح يتناول بعض الحلوى من الصحاف الموضوعة أمام صديقه « دافید » .. ثم قال :

— ان تكريمنا لك يالدى « أوليفيا » رمز لتكريم المرأة بوجه عام . ولو أنك كنت سيدة هندية عصرية — لانك لو كنت غير هذا لما رأيناك بينما الان — لكان تكريمنا لك على هذا النحو نفسه ..

ثم نظر الى الباب الكبير المفضى الى داخل القصر ، وأردف قائلا :

— آه .. هذه هى زوجتى وطفلاى قد حضروا ..

وانفجرت الستائر المخملية عند الباب .. ووقفت بينها « ليلامانى » وعلى جانبيها طفلها . وكان « دافید » ، كلما تذكرها بعد ذلك ، تذكرها وهى فى هذا الوضع الجذاب .. فتاة طويلة القامة ، رشيقة الجسم ، جميلة ، خجول ، خميرية اللون ، متشحة الجسم بسارى حريرى من صناعة بلدها .. بونا ، أصفر اللون ، موسى الاطراف بالاسلاك الذهبية

وكانت قد رفعت طرفه الاعلى ليعطى جانبا من شعرها الاسود الناعم ، بينما تألقت عينها السوداوان الواسعتان بنظرات مشحونة بالفتنة الشرقية الخلابه .. اما شفتاها الصغيرتان المنتفختان ، فكانتا مدممتين باللون القرمزى ، وفى وسط جبينها تلك الدائرة القرمزية الصغيرة التى تنم عن عراقة المحتد ..

ونفض « دافید » واقفا ، وتبعته « أوليفيا » التى مدت يدها بحركة آلية لا شعورية نحو الشاببة الشرقية الحسناء ..

وقال « داريا » لزوجته بلهجة أمرة :

— تعالى يا « ليلامانى » .. هاعما صديقتانا .. وهذه « أوليفيا »

وتقدمت « ليلامانى » ببضع وهى تضع فى قدميها صنديلا ذهبيا ، بينما ظل طفلها متعلقين بها ..

وعاد زوجها يقول بلغته الوطنية :

— يمكنك أن تصافحى السيدة ، ولكن لا ضرورة لذلك مع السيد ! ورغم الثبرات الأمرة فى صوت « داريا » فقد كانت عيناه تتماهى عن

الحنان والحب ..

ومدت « ليلامانى » يدها الصغيرة الى « أوليفيا » ، وكانت اظافرها انيقة مدببة مطلية بنفس اللون القرمزى الذى طلت به شفتيها

وأمرها « داريا » قائلا : « قولى .. أوليفيا »

فقال « ليلامانى » ببضع : « أو .. ليفيا »

وردت « أوليفيا » قائلة وهى تصافح اليد المبسوطة اليها : « ليلامانى »

وقال « داريا » ببساطة وهو يدنى اليه طفليه :

— هذان هما طفلانا الشقيان ..

ثم أردف وهو يمسح على شعر كل منهما :

— هذا فى الخامسة من عمره ، وهذا فى الرابعة .. وهناك ثالث — طفل او طفلة — فى الطريق بعد ستة اشهر منذ الان ..

وانحنى الطفل الاكبر نحو صحاف « أوليفيا » بفضول ، فقدمت اليه قطعة حلوى .. وسرعان ما بسط الاصفر يده السمراء الدقيقة ، فوضعت فيها « أوليفيا » قطعة أخرى .. وهنا قال والدهما بلهجته الأمرة :

— هذا يكفى .. انصرفا الان ، والعبا فى الحديقة ..

وسرعان ما أطاعا الامر ، فانصرفا وكل منهما ممسك بيد الآخر ، وقطعة الحلوى فى فيه ..

وجلست « ليلامانى » بجوار زوجها ، وهى حريصة ألا تلمسه أمام أعين الغير .. ونظر هو اليها فى حب وحنان ، وقال :

— انها تحسن السلوك والتصرف .. زوجتى هذه يا « أوليفيا » .. ولعلك لا تصدقين اذا قلت لك انها عاشت فى شبيه عزلة كاملة حتى تزوجتنى .. ان الفتاة فى العائلات الكبيرة المحافظة لا ترى رجلا غريبا

عنها أبدا حتى تتزوج .. وهى اذا خرجت من البيت مع لقيف من النساء ، فانها دائما تستقل معهن مركبة مسدلة الستائر على نوافذها

وأذكر أن والدها حين استورد مركبة انجليزية فاخرة ، أمر بطلاء زجاج نوافذها حتى لا يرى أحد من الخارج الذين يدخلون والمركبة

www.dvd4arab.com

صحيح .. أليس كذلك يا « ليلاماني » ؟

ولما سمعت « ليلاماني » اسمها ، ابتسمت في حياء وأومات برأسها ، ولكنها لم تقل شيئا ..

وعاد زوجها يقول معابثا :

– والان يا « ليلاماني » ! يجب أن تتحدثي بوضع كلمات انجليزية .. لقد ظلمت أعلمك هذه اللغة منذ أسابيع

ثم أردف قائلا لـ « أوليفيا » :

– قلت لها باليدى « أوليفيا » ان عليها أن تتعلم الانجليزية بنفس السرعة التي تتعلمين بها أنت اللغة المارانية .. اليس هذا عدلا ؟

فقال « أوليفيا » وهي تتسم لـ « ليلاماني » :

– لا أظن .. لان اللغة الانجليزية أسهل كثيرا ..

فهتف « داريا » ضاحكا : « لا .. لا .. هذا غير معقول .. »

وهكذا استمر الحديث دائرا بينهم على هذا النحو من السطابة والخفة ، وأخذت « ليلاماني » ازاء معابثات زوجها لها ، تتخلل تدريجيا عن حياثها الشديد .. واذا هي تندمج شيئا فشيئا في جو المعابثة ، بل وتدفعه في صدره ذات مرة بيديها الرقيقتين ، وهي تضحك بصوت كرتين الفضة ..

وراحت « أوليفيا » تتطلع الى « ليلاماني » مفتونة مسحورة .. انها لم تر في حياثها امرأة من هذا الطراز العجيب .. فرغم انها – أى « ليلاماني » – لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها ، فقد بدت ناضجة ، موفورة الانوثة ، عارمة الجاذبية ، تحس ان كل كيانها مركز في انوثتها ..

وربتت « ليلاماني » على أسفل بطنها المستديرة ، ثم لمست بطن « أوليفيا » المفلطحة بأصابع متحمسة ، وقالت مستهفمة : « نعم؟! » فهزت « أوليفيا » رأسها وقالت : « لا »

وعادت « ليلاماني » تقول بصوت كله الامل : « قريبا ؟ »

فردت « أوليفيا » وهي تشعر ببعض الارتباك : « ربما .. »

وضحك « داريا » قائلا :

– أرجوك باليدى « أوليفيا » ان تلمسى لها العذر .. فان « ليلاماني » ، كاية امرأة هندية لم تفسدعا المدينة الغربية ، ترى

ان اهم شيء في حياثها هو قدرتها على انجاب البناء . انها تعتبر هذا دليلا على اهليتها كامرأة . والهندية الاصيلة تفضل الموت على العقم .. فهل يعسر عليك فهم هذه الحقيقة ؟!

فقال « أوليفيا » بصراحة : « اعتقد هذا »

وكانت « ليلاماني » عندئذ ترتقبها في امعان بنظرانها المدهوشة الغامضة ، وكانت في الواقع تتطلع بجراة الى شعر « أوليفيا » الذهبى ، والى وجهها الناصع البياض ، والى بشرتها الناعمة ، والى قوامها النحيل . ثم مدت يدها ولمست طرفا من ثوبها الحريري الازرق ، ثم تناولت يد « أوليفيا » بين يديها ، وراحت ترتب عليها يدها اليمنى وهي تبتسم لها في مودة وصفاء

ونظر الرجلان الى هذا كله في رضى وامتناع ، بينما كان « داريا » يقول :

– ان « ليلاماني » تريد ان تقول لك باليدى « أوليفيا » انها تحبك ، وانها تريد ان تكون أختا لك . ولاداعي للخجل يا ليدى « أوليفيا » .. فاننا هنا نعتقد ان الحب هو خير هدية تقدمها لغيرنا من الناس ، وأنه لا ينبغي ان نكنمه اذا كنا نكنه للغير في قلوبنا .. وأؤكد لك ان « ليلاماني » لا تظهر حبها لغيرك بمثل هذه السهولة .. انها فتاة ذات كبرياء وتحفظ

وردت « أوليفيا » عليه قائلة :

– قل لها اننى ايضا احبها ويشرفنى ان أكون أختا لها .. وأرجو ان تسمح هى لى بالتردد عليها بين الحين والآخر

ولم تستطع « أوليفيا » ان تقول أكثر من هذا .. ذلك انها كانت، في الواقع ، تشعر بالارتباك الشديد في تلك اللحظات . كانت تحس بمشاعر مختلفة غريبة تتصارع في أعماق نفسها .. بمشاعر أخذت تذيب عواطف جامدة لم تكن تدري انها حملتها ذات يوم . لقد بدأت تحس بانها تتحول تدريجيا ، امام هذه الفتاة الهندية ، الى نوع جديد من الانوثة الفياضة الناضجة .. وبدأ لها ان مشاعر جديدة قد بدأت تتفتح في أعماق نفسها ، وان عواطف حارة جديدة قد أخذت تندفق في كيانها وتضاعف مشاعر الانوثة في نفسها .. ولم تدرك تلك اللحظات هل هى راضية عن هذا أم ساخطة ، ولكن الشيء

المؤكد انها تمت لو استطاعت أن تبدو فاتنة جذابة مثل «ليلا ماني»
.. وأن يجتمع فيها هذا المزيج الساحر من الحكمة والفتنة ، من
الشباب والكهولة ، من البساطة والغموض ، من النضوج والبراءة ..
وظلت هذه المشاعر تصطرع في أعماق نفسها حتى أجهدها عند
انتهاء الزيارة ، فانصرفت وهي تحس انها لا تزال في حيرة وارتباك
مما طرا عليها من تغيير بسبب هذه الزيارة

في تلك الليلة نفسها .. وبينما كان « دافيد » يستغرق تدريجيا
في النوم داخل الستائر الخفيفة المحيطة بفراشه الكبير في غرفته
الخاصة ، اذا به يصحو مدهوشا وهو يسمع حفيف أقدام زوجته
العارية على أرضية الغرفة . ونهض في فراشه جالسا وهو يذكر أن
زوجته لم يسبق لها أن سارت في الظلام ، وبقدمين عاريتين !
وقال بصوت هامس ، وهو يمد يده ليتناول علبة الثياب حتى
يشعل المصباح الموضوع دائما بجوار الفراش : « أوليفيا ! أهذا
انت ؟ .. »

فهمست قائلة : « نعم .. ولكن .. لا توقد المصباح »

– لماذا ؟ ماذا حدث ؟

فقالت وهي تجلس على حافة فراشه :

– لا أعرف ! أوه .. دافيد .. هل تحبني حقا ؟

– طبعاً يا حبيبي .. ان حبي لك يزداد كل يوم ..

– ولكنني أريد أن يزداد .. ويزداد .. ويشتعل كالنار ...
وكان في صوتها رنة بكاء .. فلم يدرك « دافيد » ماذا يفعل ، ولكنه
رفع غلازل السرير ، ومد يديه وجذبها نحوه ، وهو يقول بصوت كله
حب وحنان :

– ماذا بك يا حبيبي ؟ لماذا تبكين .. هل تشعرين بألم ؟

ولم تجب عليه بشيء .. وانها تملقت به وهي ترتجف وتبدو في
تصوره امرأة جديدة مشبوبة العاطفة ، ملتبهة الدماء عارمة الإنونة ،
لا تكف عن الهمس الحار : « ضمنى اليك .. ضمنى بكل قوتك ..
انني أكاد احتقن .. »

ولم يسهه الا أن يتجاوب معها بأعنف ماتكون العاطفة المشبوبة ،

بل المسعورة !

وعجب « دافيد » لنفسه .. انه لم يستسلم في حياته لمثل
هذه العاطفة المجنونة يوماً .. ورغم أدراكه بشرعيتها ،
الا انه أحس أن ما حدث لا يليق بإنسان له رسالة سامية في الحياة ..
بل لقد شعر انه ارتكب انما ، وأنه ما كان ينبغي أن يتجاوب مع
أوليفيا في امر كهذا

ولكن ماذا دهاها ؟! .. انها حقا مشبوبة العواطف ، حارة الدماء
... ولكن لم يحدث منذ تزوجها أن وجدها على هذا النحو من
الميل الجنسي العنيف ؟

وقرر في ذات نفسه أن يكون أكثر سيطرة على عواطفه في المستقبل
ونفض أخيراً ، تاركا « أوليفيا » مستغرقة في النوم ، ومضى الى
الحمام حيث اغتسل ، ثم ارتدى ملابس نظيفة ، ومضى الى غرفة
مكتبه ، وراح يقرأ الكتاب المقدس . ولكن شعوره بالانتم جعله لا يفهم
شيئاً من الكلمات المتراقصة أمام عينيه . وأخيراً طوى الكتاب
وركع على ركبتيه ، وراح يتهل وهو يتمتم : « غفرانك يارب »
وبعد فترة طويلة ، أخذت السكينة تتسلل الى نفسه كالضوء
الهاديء الذي ينساب من شمس الصباح ليضيء أعلى الجبال ..
ورفع رأسه أخيراً وقال :

– اللهم امنحنى القوة لاسيطر على عواطفى ..

وتحول الجو الى شيء من الاعتدال – بقدر ما يمكن أن يعتدل الجو
في بلدة بونا – ولكن « أوليفيا » كانت ، رغم هذا ، تشعر بالضعف
والتراخي واللال . فقد أخذت أيامها تمر على نمط واحد .. جميلة
حقا ، ولكنها لا تتغير – ولا تعرف المفاجآت . وقد ألمها انها أصبحت
أكثر كسلا واسترخاء حتى أصبحت تضيق بأعداد الولائم والمآدب
ردا على ما كان يقام لهما هنا وهناك . وكان أهم هذه الولائم تلك
الوليمة التي أقامها « دافيد » لحاكم الاقليم الانجليزي ، وكان
« دافيد » مصرا على أن تظل علاقاته بالحاكم الانجليزي على جانب
كبير من الودية والصفاء ، حتى يتمكن من تحقيق أهدافه الإنسانية
في هذه البلاد . وكانت الامور تزداد تحرجا بسبب الشؤون الوطنية

الذى كان يزداد يوما بعد يوم ، ويسبب الشيء الكثير من الارتباك فى الدوائر الحكومية . وكانت هذه الدوائر ترتاب فى أن الأمريكيين يعطفون على هذه الحركة القومية المتزايدة ويشجعونها سرا ، ويعملون على الإسراع بوصول الهند الى مرحلة الاستقلال

وقال الحاكم الانجليزى أثناء المادبة :

— يسرنى أن أراك فى حالة طيبة يا «ماكارد»

وكانت « أوليفيا » جالسة فى الطرف المقابل للمائدة ترهف السمع لاجابة زوجها الذى قال بهدوء :

— اننى يا صاحب الفخامة ضد الثورات .. ولكن هذا لا يعنى اننى ضد التغيير ، لانى أبذل كل جهدى فى تعليم الشبان الهنود الذين سوف يتولون مقاليد الحكم فى بلادهم فى الوقت المناسب .. ان هدفى أن أساعد على تطوير البلاد فى ظل النظام والامن والاستقرار فقال الحاكم فى تجلده :

— ليس هناك من يعترض على أمر كهذا . ونحن بطبيعة الحال لن نتأخر عن منح البلاد الحكم الذاتى عندما يصبح أهلها أكفءا لمثل هذه المهمة . وليس هناك شك فى أنهم — الآن — لا يصلحون لمثل هذه المهمة فأربعة أخصاسهم جهلة أميون وهنا قالت « أوليفيا » :

— اننى كثيرا ماتساءلت يا صاحب الفخامة لماذا لم ينتشر التعليم فى البلاد بعد أن ظلت خاضعة للحكم البريطانى مئات السنين ؟ ولم تجرؤ على أن توجه نظراتها الى « دافيد » ، وانما ركزتها على وجه الحاكم العام ، فى شىء من التحدى ..

وبعد برهة من الصمت ، قال الحاكم فى شىء من الحدة :

— ماذا تقولين يامسز « ماكارد » .. لا اظن أنك تنشرين مثل هذه الآراء بين الاهالى هنا . ان الأمر يحتاج الى مئات أخرى من السنين لتطوير البلاد .. تصورى حالتها يوم جئنا إليها ، ثم تذكرى كم استغرقنا من وقت لاقرار النظام فقط فى أنحاء البلاد . لقد احتجنا الى مائة عام لكى نستطيع ان نحكمها . ومع هذا كله ، فلسنا مسئولين تماما عن كل شبر فيها ؟ فلا يزال هناك الامراء الوطنيون . ونحن لانحب أن نستخدم العنف فى عملية التطوير .. !

وكادت « أوليفيا » أن ترد على هذه المغالطات الواضحة ، ولكنها فوجئت ببعض المدعوين يحاولون المناقشة الى اتجاهات أخرى ، وكانها خطة مرسومة . ولم يسعها من ثم الا أن تلوذ بالصمت وتصفى للحدث الدائر .. وهى تأكل بشهية قوية لانها كانت تشعر بالجوع .. ولكنها لدeshتها ، كانت تشعر أيضا أن هذا الطعام الكثير لا يزودها بطاقة كافية من النشاط

ولما انصرف المدعوون ، جلست تنتظر تانىب « دافيد » لها بسبب توجيهها ذلك السؤال المرحج الى الحاكم الانجليزى .. ولكنه لم يؤنبها ، ولم يعاتبها ، وانما بدأ مشغولا بأفكاره عنها .. وكان هكذا دائما فى الاسابيع الاخيرة ، وقد ارجعت هذه الحالة الى انشغاله بالمبائى التى كانت ترتفع بسرعة مذهلة ، والى الطلبة وأولياء الامور الذين أقبلوا من مختلف الانحاء ليحجزوا الاماكن فى ذلك المركز الثقافى . وقد بلغ من انشغاله أنها كانت تقضى اليوم كله فى بعض الاحيان دون أن تراه غير لحظات سيرة

وأطفأ الخدم الاضواء ، وسار الانان فى الدهليز المؤدى الى غرفة نومهما .. ولما رآها تعتمد بقوة على ذراعها ، قال لها :

— هل تشعرين بالتعب يا أوليفيا ؟
— قليلا ..

وقررت أن تعترف له فى الصباح بانها — منذ بضعة أيام — وهى تشعر دائما بالتعب .. أما الليلة ، فانا لا تجد من القوة مايعينتها على ان توضح له الامر . ووقف هو امام القرفة فى انتظار دخولها ، ولم تلبث أن جمعت اطراف ثوبها الطويل ، ومرت الى غرفتها .. ولكنها توقفت فجأة وقالت له :

— هل كنت أبدو جميلة الليلة ؟

فتردد برهة .. ولكنه لم يلبث أن قال بهدوء حين رأى نظراتها تتالق :

— جدا ..

وكادت أن تقول له : « اذن لماذا لا تأخذنى بين ذراعيك وتقبلنى » ولكنها كتمت هذه العبارة حين رأت فى عينيها حركة انسحاب وانكماش تقسى ، ومن ثم قبلته بسرعة وقالت :



وسمح لها البواب بالدخول مرحبا ، وأمر أحد الخدم أن يخبر
سيدة البيت بوصول هذه الضيفة
ووقفت « أوليفيا » تنتظر في الحديقة الجميلة التي كانت الطيور
تملأ جوها بالأغاريذ .. وكان ثمة غزال اليف يقترب منها متشعما ،
آملا في أن يجد معها قطعة من الحلوى . فلما خاب أمله ، تراجع عنها
في ارتياب ..

وعاد الخادم يدعوها للدخول .. ولما مرت من ثلاثة أبواب ، رأت
« ليلا ماني » واقفة في انتظارها وقد بسطت إليها ذراعيها في حرارة
وترحيب وهي تقول :
- لقد جئت بمفردك يا اختاه .. اننا نستطيع اذن أن نتبادل
التحديث بحرية وأطمئنان ..

وقالت « أوليفيا » بعد أن ردت تحيتها :
- أرجو يا عزيزتي أن تحدثني ببطء ، لان قدرتي على فهم الماراثية
لا تزال ضعيفة ..

فضحكت « ليلا ماني » وقالت :
- انك على كل حال احسن حظا واقدر على التعلم ، لاني حتى
الآن لا اعرف شيئا من اللغة الانجليزية ، ويبدو انني على جانب كبير
من الغباء . لقد حاول زوجي كثيرا ان يعلمني ، ولكنني كنت دائما
أضحك كلما حاولت النطق بهذه الكلمات العجيبة . تعالي يا اختاه ..
أدخلى ..

وظلت مسككة بيد « أوليفيا » حتى بلقا غرفة كان الطفلان يلعبان
فيها .. فتقدما نحو الضيفة وقاما بتحيتها في وداعة واحترام، بينما
قبلت هي كلا منهما . وطلبت اليها « ليلاماني » أن تجلس على أريكة
مريحة بين عدد من الوسائد اللينة ..

وأحست في جلستها بالراحة والاسترخاء . وكان ضوء الشمس
يبدو ساطعا من الباب البعيد في نهاية الفسفة .. وكانت الورود
العاطرة الموضوعة في أواني الزهور تشر في جو الغرفة شذى
مهذنا للأعصاب ..

وقالت « أوليفيا » :
- ما أجمل السكن الذي يشيع في بيتك يا « ليلاماني » كيف

- طابت ليلتك يا « دافيد » ..
- طابت ليلتك يا « أوليفيا » ..
ولما رآها ترتد عن الغرفة ، أسرع يقول في توجس :
- الى أين ؟ ..
- سوف أنام هذه الليلة في غرفة الاستقبال ، لاني أشعر الليلة
ببعض التعب ..

رمرت لحظة قبل ان يقول :
- كما تثنائين ، فان وجهك يبدو شاحبا فعلا ..
واستدارت ، وتركنه واقفا في مدخل غرفة نومها ، ومضت لتنام
بمفردها - لأول مرة - منذ زواجها ..

وعضت على شفتيها ، وهي تقول لنفسها : « انه غير مهتم ؟ ..
انه لم يحاول ان يعيدني اليه ؟ .. انه لا يحبني كما احبه ! »
وفي سكون الليل أخذت تبكي ، وقد ادهشها ان وجدت نفسها
تبكي في الايام الكثيرة التالية لانفاه الاسباب !

وبعد ظهر اليوم التالي ، ازداد شعورها بالوحشة والانفراد ..
فقررت ان تقوم بزيارة لاحدى الصديقات في البلدة . وشرعت
تستعرض صديقاتها الاتى يمكن أن تشعر مع احداهن بالانس
والراحة . واستقر رايها أخيرا على الذهاب الى « ليلا ماني » ..
ناستقلت مركبتها ، وأمرت السائق بالذهاب الى بيت المستر
« داريا » ..

ولم تجد « داريا » بالبيت .. ومن ثم تردد البواب في السماح لها
بالدخول ، وراح يتبادل الرأي مع سائق المركبة باللغة الماراثية ..
وقد استطاعت ان تفهم بمحصلها القليل من هذه اللغة ، أن العادة
جرت الا تستقبل « ليلا ماني » أية ضيفة انجليزية بدون حضور
زوجها ..

وهنا قالت « أوليفيا » متدخلة في الحديث :
- ولكنني لست انجليزية ..

ولما رآها البواب تنطق هذه العبارة باللغة الماراثية ، أيقن انها
ليست انجليزية فعلا ، لان الانجليزيات - بوجه عام - يرفضن
الحديث بغير لفتهن

يبدو بيتك هكذا ساكنا رغم وجود الطفلين به ؟

فقالت « ليلامانى » وهى تتبسم :

– انه لا يكون ساكنا هكذا عندما يحضر زوجى أو يأتى بعض الإقارب للإقامة معنا ، ولكننى عادة أحب السكون ، وقلما أتحدث وإنما اكتفى بالصمت والانصات . أوه .. نامى يا اختاه .. نامى .. فان التعب يبدو واضحا عليك

وابتسمت « أوليفيا » ، وتراحت فى مكانها ، وأغمضت عينيها ، ثم

قالت :
– لا .. لا .. لا ينبئنى أن انام .. لسوف استريح قليلا ..

ولكنها لم تستطع أن تستريح .. ولما فتحت عينيها ، رأت « ليلامانى » تتأملها بنظرات فاحصة مركزة . وبعد أن أحضر الخدم الوان الشراب والحلوى والفاكهة والقطائر ، أخذت تآكل – كعادتها فى الأيام الاخيرة – بشهية ملفتة للنظر . وفجأة صفتت « ليلامانى » فى جزل ، وقالت ضاحكة :
– وانت أيضا يا اختاه .. !

ثم انحنى وراحت تربت على بطن « أوليفيا » برفق .. ولكن هذه نظرت إليها متسائلة دون أن تفهم شيئا ، وعندئذ أردت « ليلامانى » تقول :

– نعم .. اننى أعرف الأعراض .. تحسسى يا اختاه ! انه ولد ثالث .. نعم اننى أعرف من نسبة ارتفاع بطنى اذا كان الجنين ولدا أو بنتا .. انه هذه المرة أيضا ولد . وسوف أستطيع أن أقول لك بعد أشهر قليلة ان كان جنينك ولدا أم بنتا

وصعدت الدماء الحارة الى وجه « أوليفيا » ثم سرت حرارتها فى كل جسمها . نعم .. ربما كان هذا صحيحا ؟ .. ولعل هذا هو سبب استرخائها وتوكلها وشعورها الدائم بالجوع ، وعدم اهتمامها بما يجرى فى بيتها ..

وقالت بتردد :

– اننى لم أعرف هذه الحقيقة بنفسى ..

فقالت « ليلامانى » بسعادة :

– يسرنى أن أكون أول من يشرك .. وأنا دائما منبع الانبياء

السارة .. انى واثقة انك حامل .. لسوف أخبره ، أخبر زوجى ، وسوف يخبر هو بدوره اخاه – اعنى زوجك – وسوف نسمع جميعا بهذا النبأ السار

ثم انتصبت جالسة وأرهفت السمع ، ثم قالت :

– آه .. ها هو ذا قد حضر .. لسوف أخبره الآن ..

فأسرعت « أوليفيا » تقول محذرة :

– لا .. لا .. ليس الآن .. يجب ان أخبر زوجى أولا . ويحسن ان أعود الى بيتى الآن ..

ولم تمك فى تشخيص « ليلامانى » ، لانها هى نفسها ادركت اخيرا حقيقة الامر معها .. وهى الحقيقة التى فسرت كل شيء ..
وقالت « ليلامانى » بانفعال :

– اذهبى اذن .. اذهبى ، ثم عودى بسرعة .. لسوف ابتهل الى الله ان يكون مولودك ولدا ..

ولما عادت الى البيت ، وجدت « دافيد » فى انتظارها وهو يمسك برسالة بين اصابعه ، وتوقفت فجأة حين رأت سمات الاهتمام واضحة على وجهه ، ومن ثم قالت :

– كنت فى زيارة « ليلامانى »

– أخبرنى البواب بهذا .. هذه رسالة من الحاكم العام يعرب فيها عن أسفه واستيائه من السؤال الذى وجهته اليه فى الليلة الماضية ، وقد اهتم بالامر وبذل جهده فى هذه الرسالة ليشرح وجهة نظره ..

– أرجوك يا « دافيد » لا تؤنبنى ، خاصة وأنا الآن حامل ..
والقت بنفسها بين ذراعيه ، وتعلقت به .. وتركت شففتيها تحثان عن شفتيه .. ثم حملها أخيرا الى الداخل ، تاركا رسالة الحاكم العام تسقط من يده دون أن يبالي !

ومضى معها فى اليوم التالى الى بيته الجبلى ليقضى أسبوعا فى راحة واستجمام ، بعيدين عن الناس ، والاعمال ، والاعباء .. ذلك أن « دافيد » قرر أن يكافئها بهذا الأسبوع الممتع ، لاسيما بعد أن أكد له طبيب المستشفى المحلى أنها حامل فعلا ، وبعد أن قال له



— ان اعصابها متوترة بعض الشيء يا مستر «ماكارد» ويحسن بك ان تمضى بها الى مكان هادىء لمدة اسبوع
وفيما كانا جالسين فى الشرفة المظلة ، على الوادى الاخضر ، تلفهما غلازل المساء الهادىء ، اذا بنغمات هذه الاغنية الحزينة .. اغنية الهند التى يردها المزارعون والرعاة فى كل مكان ، تنساب الى اسماعهما :

ارو قلبى يا حبيبى ..

كما اروى انا هذه الارض ..

واجعلينى ملك يديك ..

كما ساجعلها ملك يدي ..

ارو قلبى يا حبيبى ..

وكانت الاغنية تنبعت من صدر مزارع يعمل الى ساعة متأخرة من الليل ؟ واحسن «دافيد» بيد «اوليفيا» تقبض على يده فى شىء من الاضطراب ، فقال لها : « ماذا بك يا « اوليفيا » ؟ »

— هذه الاغنية تجعلنى اشعر بالوحشة البالسة .. رغم اننى هنا معك .. انها وحشة رهيبه لا اعرف سرها او مصدرها ..

— ربما يرجع هذا الى انك تسمعين الاغنية دون ان تشاهدى من يقينها ..

— آه .. ربما ..

وساد الصمت بينهما .. واخذت الافكار تعصف براس «اوليفيا» وهى تتذكر ان اعمال زوجها — او بمعنى آخر ، هذه البلاد — تاخذها منها يوما بعد آخر .. وانه — بعد ان يولد ابنتها — لن يستطيع ان يجعله ملكا لهما دائما !

وخامرهما فجأة شوق شديد الى وطنها .. ولكنها هزت راسها . انها تحب « دافيد » .. تحبه كما لو كان نصف اله .. وان المكان الذى يعيش فيه دافيد هو وطنها .. وحسبها انها تحمل له كل هذا الحُب اما هو ، فلا شك انه يحبها ايضا ، ولكن هذه البلاد تشاركها فى هذا الحُب !

وقالت بعد ان ملت الصمت : « ان الهواء مشبع بالرطوبة .. دعنا ندخل لاننى اشعر ببعض التعب »

وسارا معا الى الردهة الكبرى حيث كان ثمة مصباح كبير يشيرها فلما توسطاتها ، طوقها بذراعه ، وقبل شفيتها بحرارة .. فمالت عليه وقالت :

— «دافيد» .. اننى سعيدة لانه سيكون لنا ابن .. !

— اخبرينى لماذا يا حبيبى . اننى اعرف ان الابن نعمة من نعم الله ، ولكن لماذا تقولين هذا الآن !!

فاخفت وجهها فى صدره وقالت :

— اننى اتمنى ان يكون لنا اربعة ابناء على الاقل .. لاننى عندئذ سانشغل بهم عنك .. وبذلك اتيح لك المزيد من الوقت والفرص لتتفرغ لاداء رسالتك !

فضمم قائلا : « يالك من زوجة نموذجية ! »

وشعرت بيده تمسح على شعرها ، فالتصقت به بقوة ، واغمضت عينها .. واقسمت — فيما بينها وبين نفسها — ان تجعل حبايحيط به كالملاك الحارس .. ستجعله كالهواء النقى الذى ينتشر حوله .. انه قد لا يشعر به وهو يتنفسه ، ولكنه موجود دائما !



الفصل الثالث

المولود الجديد

وفي نهاية الايام السبعة ، عادا الى بيتهما الكبير في بونا ، وهناك توقفت «اوليفيا» عن تلقي دروس اللغة الماراثية . لانها شعرت ان تكون علاقتها بالهند قد انقطعت تماما ، وانها سوف تقتصر على ان تكون زوجة لـ «دافيد» واما لاولاده .. سواء كان في الهند ، او في ايتبقةة اخرى من بقاع الدنيا !

وارسلت الى «ليلا ماني» تقول انها في حالة صحية لا تسمح لها بزيارتها بعد ذلك . ولما جاء «داريا» لزيارتها بمناسبة عودتهما من الجبل ، عاملته بشيء من التكلف .. ولكنه لم يفضب او يعتب ، لان زوجته كانت قد اضرته بحالة « اوليفيا » وان المرأة تكون عادة متوترة الاعصاب في اشهر الحمل ، لاسيما الاولى منها ..

ولكن عندما حاول «دافيد» ذات مرة ان يقلبها برفق ، صاحت به في توفز عصبى : « انتى لست مصنوعة من الزجاج يا «دافيد» .. وخذار ان تقبلنى بخفة ووفق مرة اخرى »

ثم القت بذراعيها حول عنقه . وفوجيء هو في اول الامر بشورتها، ولكنه لم يلبث ان ضحك وقال : « يالك من ساحرة فاتنة »

ثم طوقها بذراعيه ، وانهل على شففتها بالقبلات .. وبينما هما غارقان في هذا التيه من القبل اذ بالباب يفتح فجأة ، واذ باحدى الخادومات تظل برأسها ، ثم تتراجع في فزع وتعلق الباب وراءها ..

واسرع «دافيد» مبتعدا عن زوجته التي قالت في غيظ :

.. هذه الخادمة اللعينة

فقال دافيد ملتصبا لها العذر :

– لا تنسى يا « أوليفيا » اننا الان بعد الظهر ، وقد اعتادوا ان يروني جالسا الى مكتبي في مثل هذه الساعة كل يوم ..

فقالت وهى لا تزال غاضبة :

– لقد مضت ايام كثيرة – اعنى منذ ان عدنا الى بوئا من الجبل – لم تقبلنى فيها هكذا !..!

فاخفى ارتبائه بضحكة قصيرة وقال :

– اننا زوجان يا حبيبتي .. والايام امامنا طويلة عديدة .. اليس كذلك ؟ .. حسنا .. يجب ان امضى الان الى مكتبي ..

– اوه .. حسنا .. !

ورأى التواء شفيتها ، توقف مترددا ثم ابتسم .. ثم رجع ذقنها وقلها بحرارة مصطنعة ، ثم عاد وابتسم في عينيها المتمردتين ، وانصرف ..

ووقفت في وسط الفرفة تفكر فيما حدث .. واخيرا قررت ان الهند هى التى تفصل بينها وبين زوجها دائما .. فماذا تستطيع – وهى المرأة الضعيفة – ان تفعل ازاء هذه الروح السامية الشامخة؟ وكانت الامطار الموسمية قد خلخلت هذه المنطقة الغربية من الهند في تلك السنة .. وكان المواطنون الموهوبون يقول بعضهم لبعض في اول الامر ان الرياح المقدسة ذات التيارات الدافئة الممتلئة بالمطر قد تأخرت عن مواعدها فقط .. وكانت في بعض الاحيان تتأخر اسبوعا او حتى شهرا . وكان هذا التأخير في ذاته خطيرا ، لان الرياح الموسمية المتأخرة تعنى موسما خفيفا من الامطار .. اى ماء قليلا لا يكفي لانتاج المحاصيل المطلوبة على مدار العالم

ومضى اسبوع بعد آخر ولم تسقط الامطار ، وتبين ان التيارات الجنوبية الدافئة في الرياح الموسمية قد مالت جانبا وانحرفت الى مناطق اخرى . وهكذا انهمرت الامطار الزائدة عن الحاجة في الشمال .. وحتى الشرق ، كان له نصيبه من الامطار الغزيرة وان كانت قصيرة الامد .. اما في غرب الهند ، بعد الهضبة الوسطى ، فلم تسقط الامطار . وأدرك « دافيد » ان المجاعة لا بد آتية ، وان الاعمال قد بدوا يستسلمون للياس . نعم .. سوف تنتشر المجاعة ، وليس ثمة الآن

اى احتمال في الهرب منها ، لان القادرين على الشراء أخذوا يتسابقون في شراء كميات الطعام القليلة الموجودة ، تاركين الفقراء والمعدمين لمصيرهم الاسود !

وفي خلال هذه الازمة ، وضعت « أوليفيا » مولودها .. وكانت قد رفضت الذهاب الى بومباى او الى أى مستشفى انجليزى لتقضى فترة الوضع والتفاحة . ومن ثم تولى رعايتها الطبيب الانجليزى بالمستشفى المحلى ، تعاونه ممرضة حسنة مولدة المنيب ..

وكان المولود ولدا .. وضعته في ساعة الغروب عندما كانت حرارة النهار تخيم بقسوتها على البلدة . وكان الطبيب يكره ولادة النساء البيض في مثل هذه الظروف ، وينصحهن دائما بالذهاب الى بومباى .. الا ان « أوليفيا » كانت عنيدة . ومن ثم شعر انه لن يكون مسئولا عن شئ اذا تعقدت الامور !

ولكن الامور سارت على خير حال .. وساعد شباب « أوليفيا » وقوة بنيتها على سهولة وضعها .. وما هى غير ساعة بعد حضور الطبيب في المرة الاخيرة ، حتى كان الطفل قد خرج الى عالم الدنيا ..

وقالت أوليفيا له وهى تلهث : « اهو طفل قوى سليم ؟ »

فقال الطبيب : « نعم .. ابن جميل ، لك تهانى القلبية »

وحملت الممرضة – الياسمة دائما – المولود الصغير الملفوف في طيات من قماش قطنى فاخر ، وادنته من « أوليفيا » التى نظرت اليه برهة طويلة ، ثم ضحكت وهى تقول بتفاؤل واستبشار :
– عجباً ! .. انه صورة مصفرة من جده العجوز .. لسوف يكون له شعر احمر ، وشارب احمر ، ومزاج عنيف ..

وضحكت الممرضة معها .. وقتل الطبيب الانجليزى شاربه باسماء وتمنى لو كان زوجها موجودا معها في تلك اللحظة ليرى كيف تبدو زوجته على اتم ما يكون من الصحة والتفاؤل . واخيرا انصرف راضيا عن نفسه

ولما عاد « دافيد » مساء ، رأى كل مصباح في بيته مضاء ، وكل خادم في انتظاره بوجه كله الابتسام ..

كان كل منهم يريد ان يكون اول من يحمل الشئ الى « دافيد » .. ولكن الممرضة اسرعت تحمل « الشئ » نفسها ، وقضتها

يحمل الشئ الى « دافيد »
www.dvd4arab.com

بين ذراعى الوالد الذى راح ينظر الى المولود فى ذهول ، وكانما نسى
أن هذا ماسوف يحدث منذ شهر

وقالت المرضة ، وهى تراه يحملق فى وجه ابنه :
- تقول المسز « ماكارد » انه صورة مصغرة من والدك ابها
السعيد ..

فقال « دافيد » : « هذا ما يبدو لى ايضا »
وكان المولود ينظر الى ابيه فى هدوء عجيب .. ومن ثم قال
الوالد :

- يخيل لى أنه لا يحنى ! ..
فضحكت المرضة وقالت :

- انه لا يرى الان .. ان الاطفال لا يرون فى هذه الفترة الاولى من
خروجهم الى الدنيا ..
- آه .. الان اطمانت ..

وشعر « دافيد » فجأة بالاستبشار والتفاؤل ، ونسى فى تلك
اللحظات ماعاناه من آلام طوال اليوم .. ذلك أن شوارع البلدة كانت
قد بدأت تزدهم باللاجئين من الريف . وقد ذهب بنفسه ليرى ماذا
يجرى بالبلدة .. وهناك استمع الى احاديثهم عن المخازن الخاوية ،
والحقول الجافة ، والماشية التى أصبحت هياكل عظمية ، والابار التى
نضبت مياهها ، ولم يكن يوجد مخازن باقية الا فى المدن ، ومن ثم ،
اخذوا يهاجرون الى المدن سعيا وراء الطعام .. يستجدونه حيناً ،
ويسرقونه - اذا استطاعوا - حيناً آخر .. وكان « دافيد » قد قرر
أثناء عودته الى البيت أن يكتب الى الحاكم العام طالباً معونة عاجلة
.. غير أنه كان يعلم أن الحاكم الانجليزى المحلى المشائم دائماً -
البعيد عن الحياة الواقعية فى الهند عادة - سوف يهز على الاربع
كتفيه ، ويحول طلبه الى الحاكم العام فى بومباى . حسنا اذن ،
ليذهب بنفسه الى بومباى اذا لزم الامر . وفى الوقت نفسه كانت
كلياته - للمفارقة الشديدة - مليئة بالطلاب ، لان معظمهم من أبناء
الانريء ..

ولكنه نسى هذا كله فى تلك اللحظات التى راح ينظر فيها باسمها
الى مولوده الاول .. واخيراً تقدم برفق ، ودخل الغرفة التى كانت

بها « اوليفيا »

وقالت المرضة هامسة : « انها نائمة »

ولكنه - رغم هذا - سار على أطراف أصابعه نحو الفراش الذى
كان الصباح مضاء بجواره .. ومن خلال غلالات الستائر البيضاء
المحيطة بالسرير رأى « اوليفيا » راقدة فى سكون تام . وكان واضحاً
ان المرضة قامت بواجبها كاملاً فى اعداد كل شيء ، وترتيب كل
صغيرة وكبيرة فى الغرفة

ووقف بجوار السرير ساكتاً يتطلع اليها دون أن تراه ، وفجأة
شعر بفيض من الحب القوى الجارف يحتاج كل كيانه .. ما جعلها
.. وما اشد وفاءها واخلاصها ، وما اقوى بنيتها .. ان أية امرأة
اخرى ماكانت لتكف عن الشكوى لو انها تركت هكذا بمفردها فى
اوقات كثيرة ، حتى فى وقت ولادتها .. أما « اوليفيا » ، فانها لم
تشك قط ، وهى لاتشكو الان .. وانما تنام فى هدوء وسلام ..

واحس « دافيد » بالندم لانه لم يقم بواجباته نحوها على الوجه
الاكمل . ولكن .. حسناً .. لا يزال فى الوقت متسع لكى يعوضها
عن هذا الاهمال غير المقصود ، ولكى يعرب لها عن عميق حبه
وتقديره

ورفع طرف الكلة برفق ، وتسلسل الى جوارها .. ووضع يده بكل
حنان على يديها المعقودتين على صدرها .. وفتحت هى عينيهما
بهدهوء ، وكانما تعود من مكان بعيد بعيد .. ثم اذا هى تراه فتقول
صوت لا تزال فيه سمات الندم : « حبيبى دافيد ... »

وانحنى عليها ، وقال هامساً : « لقد رأيتك يا حبيبتى ...
رأيتك »

ورنت على شفثيها ابتسامه خفيفة ، وقالت : « انه كله من آل
ماكارد .. لحما ودما .. »

- اليس هذا عجيباً ؟ .. ولكن لعل سماتهن وطباعه وخلقه
تشبهك

- اننى اريده أن يشبهك انت من جميع الوجوه ..
- لسوف ننتظر ونرى ..



– ما اشد رغبتى فى النوم ..
– نامى يا حبيبتى .. ماكان ينبغي أن أوقظك ..
وانسدلت الجفون على عينها .. وتسلل هو خارجا من الغرفة
بقلب مغمم بالحب والحزن ..

الفصل الرابع

قلادة الكريستال

قال الحاكم العام فى مدينة بومباى لـ « دافيد ماكارد » عندما ذهب يطلب الفوت منه لاهالى المنطقة الغربية فى الهند : « ان المجاعات ظاهرة اجتماعية وبيئية مزمنة فى الهند يا مستر ماكارد » ونظر « دافيد » اليه .. كان رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، وسيما ، اتيقا ، مطمئنا تماما الى الله يؤدى واجباته نحو بلاده على الاكمل وجه . واخيرا قال « دافيد » وهو يحاول أن يستسلم هادئا :

– وهل من الضرورى أن تصبح المجاعات مزمنة ؟

– هكذا كان الامر دائما .. ولكننا بذلنا اقصى الجهد ليقبل عددها ، وتوسع الفترات بينها . لقد مددنا السكك الحديدية ، واقمنا وسائل الري الحديثة ، وبنينا السدود والخزانات لحفظ المياه المنحدرة من جبال همالايا . ونحن نطعم ملايين الاعمالى ، ونوفر الاعمال للملايين آخريين ، حتى يتيسر لهم ان يشتروا باجورهم الطعام المستورد من الخارج .. ومع هذا كله فانا اقدر ان اقول ان الذين سيموتون بسبب هذه المجاعة فى منطقة بومباى لن تقل نسبتهم عن ١٥ ٪ من عدد السكان فى خلال الاشهر الثلاثة التالية . ولاشك ان هذه النسبة سترتفع فى بعض المقاطعات الاخرى ، وربما تصل الى ٢٥ ٪ . والواقع ان الاحصائيات لا يمكن ان تكون مضبوطة فى الهند

وكان « دافيد » يصفى فى احترام ظاهرى ، لان الحاكم العام كان يجامله فى معظم المناسبات .. ربما لانه اولاً ابن المينور المالى الكبر « تيودور ماكارد » .. ولكن مجاملاته له الان أصبحت ولادة تقديره .



واحترامه لـ « دافيد » بالذات . والحاكم العام لا ينسى أن « دافيد » كان دائما صريحا مستقيما في معاملاته مع الحكومة ، كما أن خريجي كلياته أثبتوا أنهم يعرفون واجباتهم كموظفين حكوميين ، ولا يتجاوزون حدودهم . وقد عرف هؤلاء الخريجون باسم « رجال مكارد » .. وكان يكفي أن يحمل أحد الهنود هذا اللقب حتى تفتح له ابواب العمل في الوظائف الحكومية والشركات والبنوك ..

وقال « دافيد » مقترحا :

— أن أبى يقول ان البلاد في حاجة الى مزيد من السنك الحديدية ، لان الطعام موفور في شمال الهند . وعلى هذا فالامر مجرد مسوء توزيع .. !

ياخفى الحاكم العام امتعاضه ، وقال :

— ان الامر ليس بمثل هذه السهولة !.. لان المشكئة الحقيقية هي كثرة عدد السكان . والواقع ان الهنود يستبد بهم الخوف من العقم . ولهذا ترى الصحف مليئة بالاعلانات عن الادوية والعقاقير التي تزيد خصوبة الرجل والمرأة ، وتقضى على الضعف أو العجز الجنسي . ومع ذلك فانا شخصا لم أسمع عن امرأة هندية عاقر أو رجل هندي عقيم . نعم بامستر « مكارد » .. ان جميع موارد الامبراطورية لا يمكن أن تكفي هؤلاء الملايين الذين يزدادون عاما بعد آخر بنسبة مفرغة .. وهذا هو السبب الحقيقي للمجاعات

وصمت « دافيد » برهة ، وراح يتذكر المناقشة التي دارت بينه وبين صديقه « داريا » ذات يوم .. وقد وثب « داريا » عنسندفد مهتاجا حين ذكر له « دافيد » مشكلة تكاثر السكان بنسبة تزيد كثيرا عن مواردها الطبيعية ، وقد قال « داريا » يومذاك بحماس :

— لشد ما يؤسفنى هذا القول يا « دافيد » .. ان الحكومة البريطانية تتخذ من كثرة عدد السكان ذريعة لكل فشل مقصود — أو غير مقصود — لمشروعاتها في الهند . ولو اننا لا نتكاثر بمعدل النسبة لكى نرضى الانجليز ، لما كان للهند اليوم وجود .. ان معدل عمر الفرد منا لا يزيد على سبعة وعشرين عاما . فهل نحن مسئولون عن هذا ؟ .. هل تعرف نسبة الوفيات بين اطفالنا ؟ انها ٥٠٪ .. كيف لا ننسى الى ان نتجب من الاطفال اكبر عدد ممكن حتى نعوض هذه

النسبة الرهيبة من وفياتهم ؟ اننا شعب ابتلاه الله بأسوا جو في الدنيا ، وباقطع نوع من أنواع الحكم في العالم ..

ولكن « دافيد » لم يستطع أن يردد هذه الكلمات امام الحاكم العام ، لان الحكمة كانت تقتضى أن يهادنه اذا اراد أن يظفر بمعونته . ومن ثم نهض وقال :

— حسنا ياساحب الفخامة .. اعتقد ان علينا جميعا أن نتأزر حتى تمر هذه المحنة بسلام . وأنا لا اريد شيئا لنفسى ، لان كلياتي مليئة بالطلبة كالمعتاد ..

— اعتقد ان العائلات القادرة ترسل أبناءها اليك ليطمئنوا الى ان الاوبئة لن تصل اليهم .. نعم .. ان الاوبئة سوف تعقب المجاعة ... هذه حقيقة لا مفر من الاعتراف بها ، ولا من العمل على مواجهتها منذ الان !

— اننى واثق من هذا ياساحب الفخامة .. طاب يومك ..

— طاب يومك بامستر « مكارد » .. انت تعرف اننا نقدر كل ماتقوم به من خدمات في سبيل الهند ..

وتصافح الرجلان .. وغادر « دافيد » القصر الفاخر الى حيث كانت مركبته المأجورة واقفة في انتظاره امام البوابة الكبيرة التي كان الحراس من طائفة السيخ قائمين عليها ..

عاد « دافيد » الى الفندق وهو يشعر بالحزن والقلق .. وكانت سحائب الغبار الجاف تظلل المدينة ، وكانها تنذر بشر مستطير . وتمنى لو أنه لم يحضر « اوليفيا » والطفل معه الى بومباي ، ولكنه الشمس العذر لنفسه قائلا انها كانت في أشد الحاجة الى تغيير الجو .. كما أنه كان من المعروف بداهة ان الاحوال في منطقة بومباي احسن منها في اية منطقة أخرى . وهكذا جاءوا جميعا ، ومعهم مربية خاصة ، وخادم لحمل المظلة فوق الطفل اينما ذهبوا . والواقع ان الايام القليلة التي أمضوها في بومباي كان لها احسن اثر على صحة « اوليفيا » وفي ذلك المساء ، عندما دخل « دافيد » غرفتها ، وجدها في حالة معنوية طيبة .. بل رأى الحمرة الخفيفة تلمر وجوها لأول مرة منذ ان وضعت ، وكانت الغرفة هادئة تماما وهي البسيطة فيها

الموسلين الابيض ..

وسالها قائلا : « هل نام تيد ؟ »

فلوت انها له ، وقالت تصحح الاسم : « نعم .. ان تيودور
نائم »

وكانا قد اتفقنا على تسمية الطفل تيودور « اى هبة الله » ، ولكن
« اوليفيا » اصرت على عدم اختصار هذا الاسم باى حال ، وقد قال
لها « دافيد » معانبا يومذاك : « انتظري حتى يلتحق بفريق كرة القدم
في الجامعة ؟ .. ان انصاره وزملاءه لن يعرفوه الا باسم تيد »

- لكن .. ولكنى لن اناديه بغير اسم « تيودور »
ولما دخل في تلك الليلة ، رفعت وجهها اليه ليقبلها ، ولكنّه
تراجع بسرعة وقال :

- انتظري حتى اغتسل يا حبيبتي .. يجب ان يغتسل الانسان
بمجرد عودته من الشارع .. لا تنسى هذه الحقيقة يا « اوليفيا » ..
وغسل يديه ووجهه بالماء والصابون بضع مرات ، ثم عاد الى الغرفة
وهو يجفف وجهه ، بينما وقفت « اوليفيا » امام المراة تضع حول
عنقها قلادة جديدة ، فلما ثبتتها قالت له وهى تستدير اليه :

- ما رايك .. ؟ اهى جميلة ؟

- جدا .. من اى شئ صنعت حياتها هذه الرائعة ؟
- من الكريستال .. وقد اشتريتها اليوم من الحى الوطنى
بالمدينة

والقى بالمنشفة من يديه ، وهو يهتف :

- من الحى الوطنى يا « اوليفيا » ؟

- نعم .. لقد قال كاتب الفندق ان المتاجر فيه مليئة بمثل هذه
الاشياء الجميلة ..

وزم شفتيه حتى لا يستطرد في عتابها .. اذ رأى ان الوقت ليس
ملائما لتوجيه اللوم اليها ، وأحس أنه هو المسئول عن عدم تحذيرها
من الذهاب الى الحى الوطنى بالمدينة .. لانها كانت حديثة العهد
بالاقامة في الهند ، ولا تعرف من ثم الاخطار التى تكثر في اوقات
كل مجاعة . وقرر الا بفرعها ، واكتفى بأن قال لها محذرا :

- لا تذهبي مرة اخرى يا اوليفيا .. اذ يحسن أن تتجنبى الزحام
في مثل هذه الظروف العصبية

- حسنا يا « دافيد » .. لسوف افعل ماتريد ..

- شكرا ..

ثم تقدم اليها ، وطوقها فى حنان شديد ..

وعاد ينظر اليها وقد بدت فى عينيه اجمل ما تكون ، ثم قال :

- ان هذه القلادة الكريستالية جميلة جدا .. هلم نهبط لتتناول
العشاء ..



أوباء

وزحف وباء الطاعون الى مدينة بومباي الكبيرة .. زحف في غفلة من سكانها البيض ، لان سكان الاحياء الشعبية كانوا يحرصون على اخفاء الوفيات التي تقع فيما بينهم . وكانت الحياة في المدينة تبدو - من الظاهر - جميلة فاتنة كالمعتاد ، لان سكانها البيض اعتادوا منذ امد بعيد ان يتجاهلوا السكان الفقراء الجياع المشرفين على الموت طالما انه ليس في مقدور احد اتقاذهم . ان هؤلاء البيض المتجاهلين للاوضاع الحقيقية ينظرون فقط الى الجبال الشاهقة المكسوة بالنفابات ، والى بساطين النخيل ، والى السفن الكثيرة في الميناء الفاخر ، والى المتاجر الضخمة التي تعرض انتاج كل بلاد العالم ، والى الناس وهم يروحون ويجيئون وكأنما الموت لا يظلمهم في كل خطوة !

اما الحاكم العام، فهو جالس في مقره الهائل المقام على رأس مالابار، يحادثه الفناء ، وخدمه وحشمه وحراسه بملابسهم الزاهية وأسلحتهم التقليدية

ولكن احدا من هؤلاء البيض لم يكن يعرف ان وباء الطاعون قد بدأ يزحف متسللا الى المنطقة كلها بعد ان خذلت الامطار الموسمية غرب الهند ، وبعد ان اجتاحت المجاعة المنطقة بأكملها

اما الاهالي الوطنيون ، فكانوا يعرفون ان الوباء قد اجتاح احياءهم، وراح يحصدهم بمنجمله .. وكان بينهم خدم الفنادق الكبيرة الذين يعيشون لياليمهم في الاحياء الوطنية ، ونهارهم بين النزلاء حاملين اليهم جراتيم العدوى

ولما عاد « دافيد » وأسرته الى بونا ، شعرت « أوليفيا » ذات يوم في الصباح بصداق مؤلم ، وللم شديد مصحوب بآوار رهيب .

— اننى لا استطيع ان اشرب حتى جرعة من الماء .. أرجوك ان تدعى وشائى ..

وهكذا جلس بجانبها ، واضعا يديها بين يديه ، حتى جاء الطبيب وراح يفحصها .. وظلت «أوليفيا» صامتة أثناء فحص الطبيب لها .. وكان اذا وجه اليها سؤالاً ، أو مات براسها اجابا او هزته نفيًا . وقد ادرك الطبيب ان الالم لا يحتمل ، وانها تتنفس بصعوبة بالغة ، وان الدوار من الحدة بحيث لا تكاد ترى وجهه ..

وفرع الطبيب أخيرا من فحصه ، واعاد الغطاء الأبيض عليها ، وبدأ من امارات وجهها انها لا تبالي بشئ . وفي الردهة خارج الغرفة ، قال الطبيب لـ «دافيد» :

— هل كنت معها منذ وقت قريب في بومباي ؟
— كنا هناك في الاسبوع الماضى ..

وتساءل الطبيب بلهجة حزينة :

— هل ذهب احدكما الى الحى الوطنى فيها ؟
— ذهبت هى مرة واحدة ..

فصمت الطبيب برهة ثم قال :

— اخشى ان تكون مصابة بالطاعون الدملى .. لقد سمعت أمس ان الوباء اكتسح بومباي ، وان الموتى كل يوم يعدون بالمئات !
وانفعد لسان «دافيد» ! .. الطاعون ؟ ذلك الرفيق الرهيب للمجاعات ، والداء الذى لا دواء له .. هذا اللعين قد أصاب زوجته الحبيبة !

وصاح بقلب ممزق يقول :

— وماذا سأفعل .. الآن ؟ ماذا يمكن ان أفعل ؟

— لا شئ للأسف .. ليس امامنا الا ان ننتظر . وسوف ارسل اليك ممرضة للسهر عليها .. وبعد ثمان واربعين ساعة سوف يتحدد المصير

وفي خلال هذه الفترة التى امضاها «دافيد» بلا طعام أو شراب أو نوم ، كان الموت يجثم في غرفة «أوليفيا» . وكانت أعراض الداء الوبيل قد بدت على جسمها الواهن ، مما جعل الطبيب يقول لزوجها على انفراد بعد ان اعاد فحصها :

واستيقظت من النوم لتجد نفسها — لدهشتها الشديدة — في حالة ضعف بالغ . وكان «دافيد» قد غادر فراشه . ومن ثم راحت هى تبذل المحاولة بعد الاخرى لتنهض وتذهب الى الغرفة المجاورة لترى هل الطفل لا يزال نائما ام لا .. ولكنها عجزت حتى عن ان ترفع اطراف الكلة ، فتهاكت راقدة على الوسائد ..

وفي غرفة المكتب ، شعر «دافيد» فجأة وهو راكع يصلى ، ان ثمة هاتفا يدعوه للذهاب الى زوجته .. انه هاتف في اعماق نفسه ، أدرك انه لن يستطيع ان يتجاهله .. فنهض رغما عنه ، ووجد نفسه يسير في الردهة الطويلة الواسعة التى لا تزال رطبية من اثر الليل ، ودخل الغرفة التى ترك فيها زوجته نائمة قبل ذلك بساعة . ولكنها لم تكن نائمة الآن ، وانما رآها من خلال الكلة ، راقدة متهاكمة زائغة النظرات ..

وهتف وهو يهرع اليها : « أوليفيا ! .. ماذا بك ؟ »

فهمست قائلة : « لست ادرى ! .. لقد شعرت فجأة بضعف شديد . ان راسى ملتهب .. ويؤلنى جدا ! »

ومد يده بسرعة من تحت غلالات الكلة ، وامسك بيديها .. فوجدتهما ساختين مبتلتين ، ومن ثم قال في جزع شديد :

— لسوف استدعى الطبيب فوراً .. استريحى يا حبيبتى .. وحاولت ان تبتسم ، ولكن بدا بوضوح انه لم يكن في مقدورها ان تفعل شيئاً اكثر من ان تظل راقدة في سكون ، وقد انسدت جفونها ، وازداد وجهها شحوبا ..

واندفع «دافيد» عائدا الى غرفة مكتبه ، واستدعى احد الخدم .. ثم كتب رسالة قصيرة الى الطبيب الانجليزى المقيم بالمستشفى المحلى ، وسلمها للخادم قائلاً : « خذ هذه الى الطبيب الانجليزى بالمستشفى ، وعد به فوراً .. »

ومرق الخادم من الغرفة كالظل الخاطف .. وفي اقل من ساعة ، كان الطبيب يفحص «أوليفيا» بينما جلس «دافيد» بجوار الفراش ينتظر ..

وكان «دافيد» في فترة استدعاء الطبيب قد حاول ان يفرى زوجته بشرب قدح من الشاي ، ولكنها قالت :



– يجب أن تعد نفسك لاسوأ الاحتمالات يا مستر « ماكارد »
وأرسل « دافيد » نظراته عبر الباب الى السرير الراقدة عليه
« أوليفيا » في غيبوبة تامة ، ثم قال وهو يقص بريقه :
– هل تعنى أنها ... ؟!

– انها لن تعيش الى الغد .. ولا يمكن انقاذها بأى حال ..
فلحق « دافيد » شفتيه الجافتين وقال :

– لسوف أصلى من أجلها طيلة الليل ..
– هذا هو الشيء الوحيد الذى يمكن ان نفعله فى هذه الحالة ..
ان الصلاة اذا لم تنقذها من الموت بمعجزة ، فسوف تكون بردا
وسلاما على روحها ..
وبعد ان أصدر بعض التعليمات الى الممرضة الكهله ، لان الممرضات
الشايات كن يفزعن من مرض الطاعون ، قالت هى له :
– يا للمسكينة .. انها فى أوج الشباب .. ثم الطفلة
الوليد .. ؟ !

فقال الطبيب لها :

– ان هناك احتمالا كبيرا فى نجاته من العدوى ، لان الطبيعة
حريصة عادة على تحصين المولودين حديثا ..
ثم استدار الى « دافيد » وأردف قائلا :

– مستر « ماكارد » .. يجب عليك أن تعيش لترعى الطفل الصغير ..
اذهب واسترح وابتهل ..

ومضى « دافيد » الى غرفة مكتبه ، وراح يبتهل الى الله بكل ما فى
قلبه من آلام وأحزان ، لكى ينقذها بمعجزة ..

وفى فجر اليوم التالى ، وبينما كان صحن الكنيسة مزدهما بعدد
من المسيحيين البيض والهنود يبتهلون الى الله لانقاذ السيدة
« أوليفيا » ، اقبلت الممرضة ولمست كتف « دافيد » الذى كان
يصلى معهم ، ثم همست له قائلة :

– لقد صعدت روحها الى السماء يا مستر « ماكارد » !

ورفع رأسه فى ذهول ! لقد ماتت « أوليفيا » بينما هو يبتهل
لكى تظل على قيد الحياة ..

ونهب فى ذموله ، وهو يحس بنبضات قلبه تكاد تحطم جسمه ،
وهنا قالت له الممرضة :

– لم يعد فى مقدورك أن تفعل شيئا الآن . فكر فقط فى ابنك ..
ولكنه لم يكن يفكر فى تلك اللحظة الا فى « أوليفيا » ومن ثم قال
لاهثا :

– أريد أن أراها .. يجب أن أراها مرة أخرى ..

– لا .. أرجوك .. فكر فى ابنك الصغير ..

وأمسكت بذراعه حتى لا يضى .. وفى تلك اللحظة ، كان أحد
الاهالى قد حمل الى المصلين فى الكنيسة نبأ وفاة « أوليفيا » .. واذا
ولجميع يرددون هذا النشيد الجنائزى : « اليك يا الهى .. أزداد
اقترابا »

واجتاح الوباء بلدة بونا ، وقتل واحدا من بين كل عشرة من
سكانها .. وهكذا مات الكثيرون من سكانها ، وكانت بينهم « ليامانى »
زوجة داريا الحساء وجنينها طبعاً ، وطفلاها .. وبقى « داريا »
بمفرده ، مفعوجاً .. بلا زوج ، ولا ولد ، فى قصره الكبير ..
اما « دافيد » ، فقد بقى له ابنه « تيد »



الفصل السادس

الحب من أول نظرة

كانت الشمس تغيب في البحر الاحمر بعد يوم قائل الحمر ..
وكان ضوءها ينتشر على صفحة الماء كأنه سائل معدن مصهور ..

وقال الشاب :

- اننى لم أر فى حياتى غروب شمس كهذا منذ أن غادرت الهند ..

وقالت الفتاة فى شرود ذهن :

- ان الحرارة مفرعة حقا ..

وكانت الفتاة ، طويلة نحيلة القوام ، انجليزية صميمة ، ترتدى
ملابس بيضاء ، وترسل شعرها الى ما وراء وجهها البيضاء ..
وكانت تبدو وكأنها فى الخامسة والعشرين ، وان كانت فى الحقيقة
تقترب من الثلاثين ..

اما الشاب فقد كان طويلا أيضا ، نحيل الجسم ، ضيق الكتفين ،
كستنائى الشعر ، رمادى العينين . وكان يبدو فى الخامسة
والعشرين أيضا ، وان كان فى الواقع لم يصل بعد الى العشرين من
عمره ..

وكان كلاهما « تيد ماكارد » - الذى تركناه فى الفصل السابق
طفلا وليدا يتيم الام - و « آنيز لينلى » - التى تظهر لأول مرة على المسرح
احداث هذه القصة - عاندين الى الهند . وكانا قد التقيا على ظهر
الباخرة ، كما يلتقى أى شاب باية فتاة فى مثل هذه الظروف . ولكن
الشيء الوحيد الذى جمع بينهما أن كلا منهما كان قد غادر الهند الى
وطنه الاصلى .. هو الى امريكا وهى الى انجلترا ، ثم هاهما ذا
يعودان مرة اخرى الى الهند

اما فيما عدا هذا ، فكانا يختلفان تماما

انه امريكى الارومة ، وهى انجليزية صميمة ..
انه ابن المستر « دافيد ماكارد » المحسن الامريكى الذى كرس
حياته لنشر الثقافة فى الهند .. وهى ابنة الحاكم الانجليزى العام
لاحدى المقاطعات الشرقية فى الهند

ولم يكن أحد يعرف هل ينتظر أن تستمر هذه الصداقة وتتطور
بين ابنة الحاكم العام الانجيزى ، وابن المحسن الامريكى ؟ .. حقا
ان اسم « ماكارد » يكاد يكون على كل لسان فى الهند ، ولكن مركز
الحاكم العام لاحدى المقاطعات يضع عادة كثيرا من الحواجز بين الابنة،
وبين أى شاب عادى ، حتى لو كان ابن مليونير امريكى !

ان « تيد » يريد أن تستمر هذه الصداقة وأن تتطور .. لقد
أعجبه منها هدوءها واتزانها وسلامة تصرفاتها ، ومن ثم حرص على
أن يوطد علاقته بها دون أن يشعرها بأنه يطاردها ..
أما هى ، فلم يكن أحد يعرف على وجه التحديد ، حقيقة شعورها
.. لان تصرفاتها نحوه لم تزد عن أية تصرفات عادية يمكن أن تصدر
من فتاة فى مثل ظروفها ، مع أى شاب لطيف مهذب ..

وفى تلك الساعة من الغروب ، كان « تيد » واقفا عند سياج ظهر
الباخرة ، يتوقع أن تظهر « آنيز » فى أية لحظة بعد أن تفرغ من شرب
النشأ .. وكان فى وقفته يبدو وكأنه فى انتظارها .. ولكنها لم
تكن متأكدة من هذه الحقيقة ..

وحينما رآها ، قال لها فجأة : « ما رأيك فى الهند بوجه عام ؟ »
فرفعت حاجبيها متسائلة ، ثم قالت : « ماذا تعنى ؟ »
– هل تعتبرينها وطننا ثانيا لك أم لا ؟
فقلت بصراحتها المعهودة :

– لست أدرى على وجه التحديد .. اننى ذاهبة لارى والدى
مرة اخرى وحيثما يكون والداك ، يكون الوطن طبعاً .. اننى فى
الواقع لست واثقة مما اذا كنت أريد أن أرى الهند نفسها أم لا ؟
ولكن أطيانا من الذكريات تردت الى ذهنى بين الحين والاخر ، فانا
مثلا أجد نفسى أتذكر الهند كلما سمعت بلبلًا يغنى فى الصباح
انريطيب ..

فقاطعها قائلا : والموسيقى الحزينة فى المساء .. »

فوافقته قائلة : « ترى لماذا تكثر الموسيقى فى الليالى الهندية ؟ »
– لان كثيرا من الناس ..
– اوه .. اننى أعرف ..

وخيم عليهما الصمت برهة ، كانا خلالهما مشغولين بالتطلع الى
منظر قرص الشمس الملتهب .. وهو يوشك على السقوط فى أعماق
الماء ..

واخيرا قالت هى مستأنفة الحديث :

– لعل الانسان لا يعرف فى الحقيقة له وطن ، حيثما يكون ..
فعندما تكون فى الهند ، لا تكف عن الحديث عن الذهاب الى أى مكان
آخر يعتبر وطننا لنا .. انجلترا بالنسبة لى ، وامريكا بالنسبة لك ،
.. واذا ذهبنا الى هناك .. أو اذا ذهبنا أنا على الاقل ، أخذت أتحدث
عن الهند ولا أكف عن التفكير فيها والشوق اليها ..
– كان هذا هو شعورى نفسه وأنا فى امريكا ..

وانطلقت ذكريات « تيد » الى ما وراء قرص الشمس .. الى بلاد
الهند التى عاش بعيدا عنها نحو عشر سنوات .. أى منذ أن غادرها
وهو فى العاشرة من عمره ..

لقد زارها مرتين أثناء هذه السنوات العشر الاخيرة التى كان يتلقى
فيها دراسته بمدينة نيويورك ، فى قصر جده المليونير العجوز . وكان
أبوه « دافيد » قد زاره مرتين أيضا ، ثم عاد الى أعماله الانسانية
بالهند .. وهو يذكر أنه بكى كثيرا وهو يغادر بونا فى العاشرة من
عمره ، الا انه لم يلبث أن نسيها أو كاد ، ولم يبق منها فى ذهنه
الا ذكريات

وكان جده العجوز مشغوقا به ، لا يرفض له طلبا ، ولا يبخل عليه
بشيء .. ومن ثم لم يشعر يوما بأنه وحيد أو محروم من شيء !

وقد تضاعفت سعادته فى المرات الاربع التى شاهده فيها أباه سواء
فى الهند أو فى نيويورك . ورغم أن جده لم يحاول قط أن يغفر
لابيه اتجاهه الانسانى – العقيم فى نظره – واصراره على أن يكرس
كل حياته لنشر الثقافة فى الهند ، الا أنه وجد متعة كبيرة فى المرتين
المتين حضر فيهما أبوه الى نيويورك

وفى إحدى تلك المرات ، قال «تيد» لابه وهو يشير الى صورة لاهمه



« أوليفيا » تمثلها وهي شابة عذراء ، رائعة الجمال ، موفورة الكبرياء :
« هل ظلت أمي جميلة هكذا حتى الموت ؟ »

فقال الوالد بصوت حزين : « بل ازدادت جمالا وتواضعا »
- هل كانت متكبرة جدا ؟

- نعم ، قبل الزواج .. ولكنها لم تلبث بعد الزواج أن أصبحت
إنموذجا للرفة والوداعة والتواضع ..

- وما السبب في هذا التغير ؟
- لا أدري يا بنى .. ولكننى أعرف أن الهند لا تترك انسانا دون أن
تغيره !

وفي العامين الاخيرين ، حدث نوع من المصالحة بين الاب والجد ..
وقد سر لذلك « تيد » كثيرا .. ولكنه رغم ذلك ، كان يخشى أن
يصارح جده برغبته في العودة الى الهند بعد أن نال اجازته الجامعية
في الادب الانجليزي . على ان الجد العجوز ادرك - بذلكه - هذه
الرغبة ، فلم يعترض .. وانما قال فقط على سبيل الاحتجاج : « اننى
لا أدري ماذا يستهويكم في هذه البلاد ، ولكن افعل يا ولدى ما يحلو
لك »

ثم اردف قائلا بصوته الجهورى المرتفع :

- ان العصيان في المرة الثانية لا يؤلم كالمره الاولى . والعادة ان
الابناء لا يدفون ثمن تربيتهم .. وقد تعودت أن ادبر أمورى
بنفسى ..

وأضى « تيد » الشهور القليلة السابقة على عودته الى الهند في
سعادة بالقة .. فهو حينما يتبادل الحديث مع جده عن ذكرياته
العديدة عن تلك البلاد ، وهو حينما آخر يعيش مع ذكرياته هو عنها ،
فيذكر تلك الليالي الحالكة السواد التى كان يجلس فيها مع ابيه في
الشرقة ، أو ذلك الخضم الزاخر من الاهالى في ملابسهم البيضاء
وعمانهم المختلفة الاشكال والاحجام ، أو تلك الاعداد الكبيرة من
الطلبة والطالبات في جامعة ابيه ، وكان بعضهم يقف ليمسح على
شعره ويتدرب معه على الحديث بالانجليزية .. بل انه ليتذكر تلك
الرائحة التى كانت تنبعث منهم ، وكأنها رائحة العشب الاخضر الناضر
القطوع حديثا .. وذلك عندما كانوا يحملونه بين أيديهم في حنان ،

وكل منهم - أو منهن - يريد أن يعوضه عن وفاة أمه ، بفيض من
المشاعر الحانية . أن هذا الحنان الدافق هو أهم وأبقى شئ يذكره
عن الهند . وهو لا يدري سره .. ربما لانه كان طفلا جميلا ، وربما
لانه كان يتيمًا . وأخطر من هذا أنه كان يتقبل كل ما كان تقدمه اليه
النساء والفتيات من فاكهة وحلوى .. ولو علم أبوه بهذه الحقيقة
لفزع ، ولكن كانت ثمة أشياء كثيرة لا يعرفها أبوه ، بل لا يعرفها
غيره . كان هناك سر ما ، بينه وبين الهند وهو طفل .. انه حقا لا
يعرف طبيعة هذا السر ، ولكنه واثق بأن الهند التى يحبها هى «عذره»
هو وليست « هند » ابيه ، وأن الفارق بينهما كبير ..

ولم يحدث من قبل أن تعرف بفتاة ، وأراد أن تتحول هذه المعرفة
الى صداقة ، ثم الى حب .. كما حدث مع « آنيز » هذه ، رفيقة السفر
.. لقد عرف حقا في طفولته فتيات صغيرات ، أهمهن « روئى »
الصغيرة البدينة المستديرة الوجه الضاحكة ، ابنة المستر والمسز
« فوردام » . ولكن « روئى » كانت تصغره بثلاثة أعوام .. وكان
كثيرا ما يخجل من اللعب معها . ولما ذهب ذات مرة لزيارة ابيه في
الهند ، علم أن والديها أرسلاهما لتستكمل دراستها الثانوية في ولاية
أوهيدو . أما الفتيات في أمريكا ، فقد كان يجد صعوبة كبيرة في أن
يشرح لهن السبب الذى من أجله سوف يعود الى الهند . ولما كانت
كل منهن لا تعرف هذا السبب - ولا يفهما في غالبية الاحيان أن تعرف
- فقد كانت تبادر الى قطع صلتها به ، رغم علمها بأنه الوريث الوحيد
للابوين العجوز « ماكارد » بعد ابيه . وهكذا عاش سنوات شبابه
القصيرة في نيويورك بعيدا عن الحب .. بل ولعله الآن ، حتى مع
« آنيز » هذه ، يمتنى الا يقع في الحب بسرعة قبل أن يعرف على وجه
التحديد ماذا يريد أن يفعل في الهند . فاذا عرف هذا يوما ، فلا بأس
طبعًا من أن يتزوج عن حب ، أو عن غير حب ، لينجب أبناء يحملون
اسم العائلة ويرثون ملاينتها . وقد كان جده العجوز صريحا في هذا
الشأن ، عندما قال له ذات يوم :

- انك آخر « العنقود » فى الأسرة .. وعليك أن تتزوج في أقرب
وقت لتنجب أكبر عدد ممكن من الابناء والبنات . والى انك عاشت
لانجبت عشرة اخوة وأخوات لك .. لانها كانت

أنوفة وحيوية .. ولكن الهند قتلتها !

ثم أردف جده قائلا - فى تلك المناسبة - بصوت متعب :

- اننى لا ادرى لماذا تريد الذهاب الى هذه البلاد والاقامة فيها ؟
وقد رد عليه « تيد » عندئذ قائلا :

- اننى لا أعرف بعد يا أبى .. ربما لا تطول اقامتى هناك

ولكنه كان يعرف فى قرارة نفسه ان اقامته سوف تطول ، وربما
تستمر الى آخر العمر .. انه لم يجد له مكانا فى نيويورك .. رغم
ان الحياة فيها ممتعة صاخبة .. وانه يتمنى ان يتعرف على كل
انسان بها ويصادقه

وكان قد نجا من الحرب العالمية الاولى ، ثم أقبل على الحياة بعد أن
استكمل دراسته الجامعية ، فاذا به يجدها حياة طائشة .. كلها
سهر وخمر وعيب ولهو وفساد .. وكأنما أراد المجتمع
الامريكى أن يعوض سنوات الحرب القاسية . وقد كان فى مقدوره
أن يشارك فى هذا اللون من الحياة على نطاق واسع بفضل ملايين
جده ، ولكنه خاف منها ونفر عنها ولاذ بقصر جده .. لا يخرج منه
الا تلبية لبعض الدعوات . وهناك يبدو على الشباب الصغير من دلائل
الوقار ، ما طالما أثار دهشة البنات وأعجاب الامهات

وحتى والده لم يحاول أن يفريه بالعودة الى الهند ، فقد كتب له
حين عرف برغبته يقول :

- لا تظن أن الواجب يحتم عليك العودة الى الهند .. حقا ان لك
بيننا مكانا دائما ، وأن هناك أوقاتا أشعر فيها بالرغبة الشديدة فى
حضورك لكى تحل محلى يوما فى ادارة هذه المؤسسة الكبرى . ولكن
هذه الرغبة لا تلزمك بشئ .. فانا لم أأخذ حذو أبى ، وليس حتما
عليك أن تحذو أنت حذوى

ولكنه لم يكن عائدا الى أبيه ، وانما هو عائد الى الهند .. عائد الى
شئ يعرفه .. الى عالم قديم .. عالم وديع رفيق .. ربما يكون
نقرا معدما ، ولكنه طيب شفوق . ان احدا فى امريكا لا يريد له نفسه
.. هكذا كان شعوره ، ولكن لعل الهند تريده هو .. ولا شئ
غيره !

وكان يعرف ان الهند التى تملأ عليه خواطره ، ليست الهند التى

تعرفها « آنيز » ابنة الحاكم العام .. لقد اكتشف بعد أيام قليلة من
تعرفه بها ، انه لا ينبغي أن يناقشها فى الدور الذى لعبه غاندى ،
وفى القومية الهندية اناهاضة ، او فى أى شئ من هذه الاشياء التى
كتب له عنها عمه - صديق أبيه الحميم - « داريا » .. انه لم يكن
يرى « داريا » - وهو طفل - الا نادرا . ولكنه عندما عاد لزيارة الهند
ذات مرة ، رآه جالسا مع أبيه يتناقشان فى الشؤون السياسية
والوطنية مناقشة حادة كادت تبلغ حد الخصومة . ولما انصرف
« داريا » ، قال « تيد » لابه :

- هل العم « داريا » رجل شرير يا أبى ؟

فرد عليه أبوه بسرعة وبحزم :

- لا .. انه رجل كريم جدا ، وسوف يصبح يوما ما رجلا
عظيما ..

- اذن لماذا تختصمان ؟ !

فحاول والده أن يشرح له الموقف ببساطة ، فقال له :

- اننا نعيش فى فترة عصيبة من فترات التاريخ ، ولايستطيع أحد
أن يتنبأ بما ستنتهى اليه الاحوال فى كل بلاد العالم . ولكننا هنا فى
الهند نرى اشياء كثيرة خاطئة .. وثمة رجال طيبون يحاولون أن
يقوموا هذه الاخطاء بوسائل مختلفة . وانا أعتقد ان طريقتى فى
اصلاح الاخطاء هى احسن طريقة . ولكن لـ « داريا » طريقة أخرى
يراهما الاحسن ..

وقال « تيد » فى الحاح :

- ولكن ألا يمكن أن تكونا صديقين رغم هذا ؟

- هذا ما أرجوه ..

وفوجئ « تيد » قيل عودته هذه الى الهند ببضعة أشهر ، بالعم
« داريا » يرأسه قائلا : « لقد أخبرنى والدك انك آت الى الهند عما
قريب .. وقد استأذنته فى الكتابة اليك ، لان الهند التى انت آت
اليها تختلف كثيرا عن الهند التى تركتها .. ولهذا يجب أن تكون على
الملم بالاحوال الجديدة هنا .. »

وظلت رسائل « داريا » تصل بانتظام تقريبا حتى سرح فى رحلة
العودة . وفى هذه الرسالة شرح له « داريا » الاوضاع الجديدة فى



انجلترا بعد وقت قصير ..
وصمت هو برهة قبل أن يقول : « هل ستشتركون في الرقص
الليلة ! »

- نعم . وانت ! ؟
- بكل تأكيد .. هل نلتقى فى مكاننا المعتاد ؟
- نعم ..

وتبادلا النظرات برهة .. ثم أومات له براسها وانصرفت ..

وظل هو بعد انصرافها لحظات يتمشى على سطح الباخرة ومد
« بصره » الى الحياة التى تنتظره .. انها حياة مالوفة لديه ، وليست
غريبة عنه .. انها حياة فيها الكثير من طفولته .. ومع ذلك فانها
تبدو فى تصويره جديدة .. ذلك لانه لم يعد طفلا ، فقد أصبح رجلا
رغم أنه لم يتجاوز العشرين من عمره .. وسوف يعيش كرجل له
تفكيره المستقل وأهدافه الخاصة ، وآماله الذاتية .. حقا انه سيستغل
بتدريس الادب الانجليزى فى جامعة أبيه ، ولكن هذا لا يعنى أنه
سيعيش خاضعا لرغبات أبيه .. انه يحبه ويحترمه ولكن هذا لا يعنى
أن يعيش خاضعا لرغباته .. انه يعلم فى قرارة نفسه أن طريقه فى
الحياة يختلف عن طريق أبيه ..
وأفاق من تأملاته أخيرا على صلصلة الجرس الذى يعلن أن موعد
العشاء قد اقترب ..

وفى خلال هذا كان « دافيد ماكارد » فى بومباى يستعد للاشتراك
فى المهرجان الامبراطورى السنوى الذى يحضره ولى عهد انجلترا -
برنس أوف ويلز - نائباً عن الملك . وكان المنتظر أن يصل الامير بعد
يومين لشهود هذا المهرجان . وكان « دافيد » يعلم أن الباخرة التى
تقل الامير هى نفسها التى تقل ابنه فى طريق العودة الى الهند . ولكنه
- أى « دافيد » - كان يشعر بالقلق فى أعماق نفسه .. لانه خشى
أن تحدث اضطرابات سياسية عنيفة أثناء المهرجان ، بعد ان شعر الجميع
فى الهند أن الحركة القومية المطالبة بالاستقلال تزداد شدة وعنفها
يوما بعد يوم .. حقا لقد اتخذت طابع العصيان الذى أوامه

الهند . قال له ان الهند القديمة بقراها لا تزال كما هى لم تتغير ..
لان الامر يحتاج الى سنوات طويلة من الاستقلال التام لكى تتحسن
الاحوال فى هذه القرى ، بل وربما يحتاج الامر الى نشوب حرب
عالمية أخرى لكى تستطيع الهند أن تظفر باستقلالها الكامل فى النهاية
.. وعلى أية حال ، فان أسلحة الاستقلال قد بدأت تصنع الآن على
يد الزعيم غاندى الذى راح يجتذب أبناء القرى الى حركته بنجاح لم
يسبقه اليه أحد . ان المنادين بالاستقلال اوج ما يكونون الى مناصرة
القرويين ، لان غالبية سكان الهند يعيشون فى القرى .. وليس
منك غير غاندى من يستطيع أن يفعل هذا ..

ولم يكن شئ من هذا يبدو طبيعيا فى نظر « تيد » لانه لم يكن
يتفق فى شئ مع ذكرياته .. ألا أنه كان مشوقا لان يعرف الحقيقة
من كل جانب . وهكذا تحدث فى الامر - امر غاندى - مع « آنيز »
وهما يرقصان معا ذات ليلة ، ولكنه فوجئ بها تتوقف عن الرقص ،
وتتجه قليلا ، ثم تعتذر بلطف عن مواصلة الرقص بحجة ألم مفاجئ
فى الساق .. ثم تطلب منه ان يجلسا ..
ولما جلسا ، قالت له :

- اننى لا أطيق ان أسمع اسم هذا الرجل الذى أخذ على عاتقه
اثارة الاضطرابات والشغب فى انحاء البلاد .. انه رمز للتركيز
والجحود بعد ان نسي كل ما فعلناه من أجل الهند ..

وأدرك « تيد » أنها تتحدث عن الهند بعقلية ابنة الحاكم العام ، ومن
ثم قال لها معتذرا : « اننى أدرك تماما شعورك ووجهة نظرك .. هل
نعود الى الرقص ؟ »

وهنا صفحت عنه ، وعادت الى مراقبته .. وحرص هو بعد ذلك
على عدم مناقشتها فى الشؤون السياسية حتى لا يفقد صداقتها .
ولكنه رغم حذره هذا ، كان يفاجا دائما باختلاف فى وجهتى نظرهما
.. لقد كان دائما ينظر الى الشئ بنظرة تختلف عن نظرتها .. ومع
ذلك فقد شعر أنها صادقة مع نفسها ، صريحة ، بعيدة عن التكلف أو
الإدعاء .. وعدا هذا فقد كانت جميلة ..

وأفاق « تيد » من ذكرياته على صوتها ، وهى تقول له :

- انظر .. لقد غابت الشمس وراء البحر .. لسوف تغيب فى

السلبية ، ولكن اتضح أن هذا اللون من المقاومة أجدى وأشد أثرا من المقاومة الإيجابية ..

وكان صديقه « داريا » قد زاره في بونا قبل ذلك ببضعة شهور ، وطلب منه أن يذهب الى نائب الملك في الهند .. وينصحه بقبول الطلبات المعقولة لزعماء حركة المقاومة ..

وكان الصديقان قد اتخذا في الحياة طريقتين مختلفين منذ خمسة أعوام . فقد اختار « داريا » أن يتبع غاندى ، واضعا نفسه وكل ما يملكه بين يدي هذا الزعيم الضئيل الجسم التوى الإرادة .. ولكن « دافيد » رفض أن يوافق على هذا النهج في الحياة

ولكن الزيارة الاخيرة لم تقرب بين الصديقين في الراى .. فقد لاحظ « دافيد » فورا ان «داريا» قد أصبح بذاته قوة سياسية ضخمة تتبعه الملايين ، ولا هدف له في الحياة الا استقلال الهند .. لقد ترك قصره وأمواله وممتلكاته لآخوته ، وخلع ملابسه الا من حزام حول خصره فوق قطعة قماش تندلى الى ركبتيه ، ثم راح يطوف البلاد ماشيا منتقلا من قرية الى أخرى ، داعيا الشعب الى المقاومة السلبية ، مبشرا بالاستقلال المنشود . ولكن الشعب - رغم هذا كله - كان ينظر اليه على أنه سيد يتحدر من الطبقة الارستقراطية . ومن ثم كان الفقراء والمزارعون يركعون امامه كلما مر بهم .. وعينا حاول هو - «داريا» أن يقتنعهم بأنه واحد منهم ، وأنه لم يعد هناك فرق بين هندي وآخر وأن الجميع لابد أن يتعاونوا للحصول على الاستقلال ، لا فرق في ذلك بين فقير وغنى ، أو بين صعلوك وأمير ..

ولما ينس « داريا » من محاولة اقناعهم ، انطلق يبيحث عن غاندى . فلما تعرف به ، أدرك انه عثر حقا على الروح التي ترمز للهند .. على الزعيم الذى سيقودها الى الاستقلال حتما ذات يوم . ومن ثم انضم اليه ، وأخضع روحه لروح غاندى ، ووضع كل امكانياته تحت امره .. وفى أثناء زيارة « داريا » الاخيرة لصديقه القديم « دافيد » ، قال هذا له أثناء الحديث عن الاستقلال :

- انتى أومن بأن لكل شعب الحق فى أنه يحكم نفسه بنفسه يا عزيزى « داريا » ولكن يجب أولا أن يبرهن هذا الشعب على أنه أصبح قادرا على حمل أعباء الحكم ..

وهنا وثب « داريا » واقفا من فرط الغضب وقال :

- كيف يمكن هذا لشعب جائع ، مستعبد ، محروم من خيرات بلاده ؟ .. لقد عاش الانجليز كل هذه الاجيال فى بلادنا سادة وحكاما دون أن يفهمونا أو يحاولوا التفاهم معنا . لقد حكمونا بالقوة .. وبالقوة وحدها ، معتمدين فى ذلك على وحداتهم العسكرية ومراكزهم البوليسية المنتشرة فى جميع انحاء البلاد . انهم لم يحاولوا قط أن يكتسبوا حينا وولاءنا ، مع أننا كنا على استعداد لان نحبهم .. نعم حتى أنا كنت أحب انجلترا اثناء دراستى فى كمبردج . فعلى الرغم مما كان يحدث ببلادى ، كنت أجد فى انجلترا الشيء الكثير الجدير بالحب .. ولهذا كان من مقدورهم أن يكتسبونا بالحب والتفاهم المشترك ، ولكنهم أثروا الاعتماد على السلاح

فقال « دافيد » :

- أرجو أن تلاحظ أن الانجليز الان فى بلادكم يتصرفون بحافز الدفاع عن النفس ..

- نعم ، نعم .. انك على حق فى هذا . ولكن لماذا يخافون منا ؟ .. انهم يخشوننا لانهم جعلوا منا أعداء لهم .. والان اخلت الفرصة من أيديهم . وهذه الحركة التي بدأت لابد أن تستمر الى نهايتها . ولسوف ترى سنوات من النضال .. ولكننا سننتصر فى النهاية .. وانصرف « داريا » بخطوات ثابتة .. وشعر « دافيد » بالخوف والاشفاق ، لقد كان يؤمن بأن استقلال الهند لابد أن تسبقه حركة تنوير وتوعية وتنقيف للشعب . وقد ساءم هو فى هذا بتلك الشبكة الضخمة من المدارس المتفرعة عن جامعته فى جميع المناطق المتحدثة بلغة المارائى فى الهند . ولكن كيف يكون الحال لو انتشر الشغب ، وزالت سطوة القانون ، وشاع الاضطراب فى انحاء البلاد ؟ كيف يستطيع ان يؤدي رسالته الثقيفية التعليمية فى بلاد تعمرها الاضطرابات والقوضى ؟ !

انه يرى أن غاندى واتباعه من أمثال « داريا » يسبقون الحوادث ، ويتعجلون الامور . وقد كان الاجدر بهم ان يعلموا الشعب أولا كيف يتحمل المسؤولية ويشعر بالواجب لينال الاستقلال وها هو ذا فى بومباى - فى فجر يوم المهرجان

الانيقة ، وقبعته الظليلة • ورفع « تيد » يده ملوحا لابيه ريشما يثبت
البحارة سلم النزول •• وما هي غير لحظات حتى كان يصافح آباه
بحرارة ويقول له :

- ان المهرجان شيء رائع يا أبى ••

- نعم •• نعم •• اننى سعيد برؤيتك يا ولدى هلم قبل ان تؤذينا
الشمس ••

فابتسم « تيد » وقال :

- لا بد أن أعود عليها يا أبى ••

- طبعاً •• طبعاً •• لقد حجزت غرفتين في الفندق •• وسوف
نترك الحقائق للحمالين ••

وقال « تيد » لابيه وهما في طريقهما الى الفندق بالركبة المغطاة :

- هل تنوى السفر الى بونا غدا يا أبى ؟

- أجل •• الا اذا كنت ترغب في البقاء بضعة أيام هنا لسبب ما ••

وتردد « تيد » برهة ، ثم قرر ألا يذكر لابيه شيئا عن « آنيز » لانه
أولا لم يكن يدري حقيقة شعورها نحوه •• ولانها - ثانيا - لم تحاول
أن تدعوه لزيارتها في قصر حاكم بومباي الذى نزلت مع أبيهما في
ضيافته •• وكل ما حدث أنهما افترقا في الصباح كما يفترق أى
صديقين •• ولما طلب منها أن تاذن له بالكتابة إليها بين الحين والآخر،
لم تقترض •• ولكنها قالت له انها لا تميل الى الكتابة كثيرا ، وانها
من ثم سوف توجز في ردودها عليه ••

وقال « تيد » وهو يتذكر هذه المحادثة القصيرة التمه جرت بينه
وربين « آنيز » :

- اننى أفضل الذهاب الى بونا في اسرع وقت يا أبى ••

ولما لاحظ « تيد » كثرة الفقراء والمسؤولين في الطريق ، قال
مستائلا :

- اننى أعجب لماذا لا تتخذ الاجراءات لطعام هؤلاء البؤساء وايوائهم

- أعتقد أن هؤلاء المسؤولين والفقراء موجودون منذ القدم •• ويبدو
أنه لا بد من وجودهم بيننا دائما ••

ولاحظ « تيد » أن آباه يتحدث بلهجة الذى لم يعد يهتم امر الناس
كثيرا وكانما انضبت الهند - بكثرة ما فيها من الآباء المشغولين

شهر نوفمبر - وانه ليرى طلائع الفجر تزحف من الشرق ، بينما بقايا
قرص القمر الباهت تغيب في صفحة الماء غربا •• وكانت ثمة أنوار
كاشفة قوية تماهت طلائع الفجر ، وتلاعبت على الباخرة « رينون » التى
تحمل الامير ، وعلى الزوارق التجارية المزينة التى انطلقت تحمل
المستقبلين من الانجليز الرسميين والهنود على السواء •• وكانت هذه
الزوارق قد بدأت تتحرك من الشاطئ على قصف مدافع التحية ، مع
أول اشعة من شمس الصباح •• وتقدم إليها أولا نائب الملك فى الهند،
ثم الحاكم العام فى مقاطعة بومباي متزينيا بنيشان نجمة الهند على
بزته الرمادية الفاخرة •• وكان معها اكبر الامراء الحاكمين فى الهند:
ثلاثة مهورجات ، ونايبان •• وكان المفروض أن يصحب هؤلاء الخمسة
الامير فى جولته ، ثم ينضم اليهم بعد ذلك مهوراجا كشمير سير هارى
سنج ، ومهوراجا كومار حاكم بيكانير ، والحاج حمد الله خان نوبال ••
ولم يستطع « دافيد » أن ينكر روعة الاحتفال •• فقد شاهد بعينيه
قوة النظام وجمال الحزم ، وسعوية القانون ، ولكنه فوجئ ، بعد أن
تم استقبال الامير رسميا على رصيف الميناء ، وبعد أن شرع موكبه
الفاخر فى التحرك الى قلب المدينة ، برجل عار الا من ملابس خفيفة
مثل ملابس غاندى ، يفتحم الصفوف ، ويتقدم نحو موكب الامير بخطوات
ثابتة ، مرفوع القامة ، على الرأس ••

وكنتم « دافيد » انفاسه حين رأى أن هذا الرجل هو « داريا » ••
وتوقف الموكب عن الحركة لحظة ريشما أسرع الحراس بالقبض على
الرجل •• على « داريا » وحملوه بسرعة الى سيارة الشرطة لكى تنقله الى
السجن ••

وهو « دافيد » رأسه وهو يتذكر تلك التوبة العجيبة التى اجتاحت
الاهالى فى أنحاء البلاد •• لقد راحوا يتسابتون فى تعريض أنفسهم
لعقوبة السجن لاسباب سياسية حتى اكتظت السجون بمئات الالوف
منهم •• بل بالملايين •• ولم يكن « دافيد » يدري على وجه التحقيق ••
هل الوطنية وحدها هى التى كانت تدفعهم الى السجن ، أم الجوع
والرغبة فى ضمان كسرة الخبز كل يوم ؟

وبعد انصراف موكب الامير ، شاهد « تيد » آباه وهو يهجم بالنزول
من الباخرة •• شاهده بقامته الطويلة ، وملابسه البيضاء ، ولحيته

والرحمة والامل فى نفسه !

وقرر « تيد » فى نفسه ، أنه لن يسمح بأن يحدث له شيء من هذا القبيل ، وإنما سوف يظل متجدد النشاط ، متجدد الاهتمام بالحياة والإحياء مهما طال به العمر فى تلك البلاد ..

وفى اثناء عودته الى بونا ، شعر أنه لا يعود الى وطنه فقط ، وإنما يبدأ حياته الخاصة فى النهاية

وقال الوالد وهما يبيطان من القطار : « ما نحن قد وصلنا .. »
وتلفت « تيد » فى ذهول الى مباني المؤسسة الثقافية التى بدت من بعيد ، رائعة ، مهيبة ، محفوفة بالحدائق والأشجار ، ثم قال :
« ما أعظم ما فعلت يا أبى فى خلال السنوات الخمس الاخيرة ؟
وقال الوالد بهدوء :

« لقد أتممت جميع بنائيات المشروع الذى وضعتته قبل أن تولد .. !
ثم اشار الى احدى المنشآت - وهما فى الطريق بالمركبة الى المؤسسة - وقال : « ان هذه البناية الاخيرة ، هى كلية الصيدلة .. وهى آخر منشآتنا . اما بيوت الطلبة والطالبات فقد ازدحمت بالمقيمين فيها .. »

ثم اشار الى بناية فاخرة رائعة الجمال والتصميم وقال :
« وهذه هى كلية البنات الصناعية .. لقد استميتها كلية « أوليفيا » تخليدا لذكرى والدتك .. »

وهبطا من المركبة ، ودخلا ساحة الجامعة .. وما هى غير لحظات حتى صلصل الجرس ، فاندفعت من مبانيها المختلفة جموع الفتيات والشبان الذين توقف بعضهم بالقرب من العميد وابنه ، وأخذوا ينظرون بفضول واعجاب الى هذا الشاب الابيض الطويل ، الهادئ السمات ، مثل أبيه .. وكانوا قد عرفوا أن عميدهم ذهب لاستقبال ابنه « تيد » فى بومباى ..

أما البنات الهنديات ، فقد أخذن يختلسن النظر فى حياء وخجل الى هذا الشاب الوسيم الوقور ، وقد سحبن اطراف السارى ليطفين روعسهن ..

وقال الوالد لابنه بعد أن قاما بجولتهما فى أنحاء الجامعة :

« ينبغي الآن أن نعود الى البيت لنغتسل ونتناول الطعام !

وفى الشرفة الكبيرة ، اجتمع الخدم ليقدموا تحياتهم الى ابن رب البيت . وقد تقدم الواحد بعد الآخر ليضع اكليلا من الزهور حول عنق الشاب ، ثم نظفوا حذاءه من التراب ، ثم أحاطوا به وهو داخل الى البيت كأنه أمير !

وعلى المائدة فى الردهة الكبرى ، رأى أبوه رسالتين ، التقط أحدهما وفضها ، ثم قال وهو يقرأها :

« انها من المسز والمستر « فوردام » ، وهما يرحبان بك ويقولان انهما سيركانك الليلة لتستريح ، ثم يحضرا فى صباح الغد لتحتيك .. »

أما الرسالة الاخرى فكانت مغلقة وموجهة الى « تيد » .. وكانت من المس « باركر » .. وفتحتها وقرأ عبارات الترحيب الواردة بها . وكان يميل الى المس « باركر » منذ طفولته ، ويدعوها العمه « ماى » .. الا أنه كان يعرف أنها كانت تحبه لانه ابن « دافيد » ورغم طفولته ، كان يعلم أنها تعيش على أمل الزواج يوما من أبيه . ولكن مرور الاعوام أخذ هذا الامل ، وأطفأ تلك الموضه التى أدفأت قلب المسكينة بضع سنوات وقال الوالد بعد أن فرغ « تيد » من قراءة الرسالة :

« لسوف أصعد الآن واغتسل ، ثم أعود بعد نصف ساعه .. »
وقبل أن يختفى وراء الباب البعيد ، توقف فجأة .. ثم أردف قائلا :

« لقد غيرت غرفتك بهذه المناسبة يا « تيد » .. ان غرفتك القديمة صغيرة ، ولهذا أعددت لاقامتك الغرفة الكبرى التى فى مقدمة البيت ، والتى كانت مخصصة من قبل لاستقبال الضيوف .. »

فقال « تيد » مندهشاً لانه لا يعرف سببا يبرر نقله من الغرفة المجاورة لغرفة أبيه :

« شكرا يا أبى .. »

وعاد الوالد يقول بابتسامة خفيفة :

« لسوف افتقدك طبعاً ، ولكننى أفضل ان تقيم فى غرفة واسعة مناسبة لك الآن .. »

وكرر « تيد » الشكر وقد شعر بالسرور ، لان الغرفة الواسعة

أفضل كثيرا - ومن جميع الوجوه - من غرفته الصغيرة التي كان يقبم فيها وهو طفل

وفيما هما جالسان الى مائدة الطعام الانجليزية الفاخرة المصنوعة من خشب الموجنة ، فى البهو الكبير ، قال « تيد » لابيه فجأة : « أين العلم « داريا » الآن ؟ »

وقال الوالد : « كان من المفروض أن يكون العلم « داريا » هنا لاستقبالك .. ولكنه تعمد أن يعرض نفسه للقبض عليه ، وهو الآن فى السجن .. »
- فى السجن !؟

- لقد أصبح « داريا » من انصار غاندى المتعصبين ..
- ولكن لماذا السجن !؟

- هكذا أراد .. ويبدو أن نوبة من جنون السجن قد اجتاحت البلاد . وأنا أعلم أن الحاكم العام يشعر بالقلق الشديد .. انه لا يعارض فى استقلال الهند ، ولكنه - مثل - يرى أن هذا الاستقلال يجب أن يتم فى الوقت المناسب . ولكن « داريا » أصبح شديد التعصب مثل غاندى . وقد أعلن اليوم عن احتجاجه على المهرجان الرسمى فى بومباى .. !

فقال « تيد » مدهوشا :

- اننى لم اكن اعرف ان العلم « داريا » متعصب .. كل ما اذكره عنه انه كان رجلا حزين السمات .. !

- لقد أصبح رجلا مختلفا عما كان منذ فقد زوجته وابناه . وقد كان فى مقدوره - كائى هندی - أن يتزوج مرة اخرى ، وأن يبدأ حياة عائلية من جديد ، ولكن يبدو أنه كان يحب زوجته الى حد العبادة !

وساد الصمت برهة ، كان الخدم أثناءها - فى ملابسهم القطنية البيضاء - يرفعون بعض ألوان الطعام ليضعوا غيرها . وأخيرا قال « تيد » :

- هل رأيت يا أبى هذا المدعو غاندى ؟

- رأيته من بعيد مرة واحدة .. وهو رجل ضئيل الجسم دميم الوجه ، ولست أدري أى شيء فيه جعل « داريا » يتعصب له على

هذا النحو ..

- لابد أن فى هذا الرجل قوة خارقة للعادة .. اننى أتمنى أن أراه وأتحدث معه ..

- وأنا أنصحك أن تتبعد عنه وعن حركته ..

وكان فى تبرات صوت الوالد من الحدة والجفاف ، ما جعل « تيد » يلزم الصمت لحظات قبل أن يقول : « أرجو على الأقل ألا تعارض فى زيارتي للعلم « داريا » فى السجن »
فتردد « دافيد » برهة ، ثم قال :

- لا بأس .. ولكننى أعتقد أنه لن يمكث فيه طويلا .. ان الحكومة تفكر فى اطلاق سراح المسجونين السياسيين حتى لا تجعل منهم زعماء !

وسمح حراس السجن للشباب النحيل بدخول السجن لزيارة « داريا » .. وكان يحمل اذنا خاصا يتيح له التحدث مع السجن داخل غرفته ، وليس من وراء الحاجز الحديدى . وما كاد « داريا » يرى الشاب حتى عرفه على الفور ، فنهض لاستقباله مدهوشا وهو يقول : « تيد .. ابنى .. وابن صديقى .. »
وهتف الشاب وهو يعانقه بحرارة :

- لقد جننت اليك ياعمى « داريا » بمجرد أن سنحت الفرصة ..
- ألم يعارض والدك فى هذه الزيارة ؟
- لا ..

وجلس الاثنان يتبادلان الحديث .. وراح « داريا » يقص تاريخ حياته على الشاب « تيد » .. فلما وصل الى كارثة وفاة زوجته وابنائها فى الوباء ، قال :

- وقررت بعدها أن أعيش عيشة « السادو » (١) . ومن ثم وزعت أموالى وممتلكاتى على اخوتى ، وارتديت أبسط الملابس ، واتعلت صندلا ، وسرت اطوف القرى دون أن استجدى الطعام ، كما يفعل « السادو » عادة ، لانى لم أزل أكثر ثراء من القرويين .. ولهذا

(١) السادو فى الهند كالجلدوب فى مصر

فاني أقدم اليهم - من القليل الباقي معي - حين أراهم يوشكون على الموت جوعا ..

ثم أردف « داريا » بعد لحظة صمت قائلا :

- « تيد » .. اذا ابدت أن تعرف الحقيقة عن الهند ، فاذهب الى القرى .. !

ولم يقل « تيد » شيئا ، وانما ظل ينظر في صمت وسكون الى صدمته ، أبيه وهو يستطرد قائلا :

- وطلعت بالبلاذ من غربها الى شرقها ، ومن شمالها الى جنوبها ، بمفردي وعلى قدمي . ونمت مع الفلاحين ، واكلت من طعامهم ، واستنعمت لاحاديثهم .. وكنت أمضي في بعض الاحيان الايام والاسابيع في قرية واحدة حتى أعرف أهلها وكانهم اهلي . ودفنت احزاني في احزانهم ، ونسيت حزمانني من زوجتي والولادى وأنا اشهد وفيانهم التي تحصى بالآلاف ومئات الآلاف . وهكذا رايت بلادى على حقيقتها .. بلاد يسكنها شعب جائع فقير جاهل .. بلاد يقيم أهلها على أرض خصبة . ولكنها لم تكن لهم يوما . وانما هي للاقطاعيين الطغاة الثروة ، وللمرابين الجشعين .. أن ملاك الاراضى لا يهمهم منها الا ايرادها . وهكذا يشيع البؤس والخراب في كل أنحاء البلاد .. ومن ثم نسيت كل ماضى ، وأصبحت رجلا آخر تشتعل في صدره نيران الرغبة في انقاذ البلاد .. ثم ..

وتوقف « داريا » برهة قبل ان يستكمل عبارته قائلا :

- ثم رايت غاندى .. .

وضم « داريا » كفيه وعاد يقول :

- اننى بطبيعتي لست متعصبا لذلك الرجل .. لا .. ان التعصب يعمى ويصم .. ولكننى رايت الرجل على حقيقته .. انه مواطن هندي مخلص وهب حياته لبلاده والتضحية يا « تيد » هي المختبر الحقيقى .. والرجل الذى يضحي بكل شىء في سبيل غيره ، يمكنك أن تعتمد عليه وتؤمن به . وقد آمنت بغاندى وتبعته ..

وبعد فترة من الصمت ، قال « تيد » :

- ما هي آمالك في الحياة يا عمى « داريا »

- آمالى أن أرى سكان بلادى أحرارا .. أن أراهم قادرين على

الاعتماد على انفسهم .. أراهم ملاكا للاراضى التى يعملون فيها ، وأحرارا في اختيار الحكومة التى تنظم حياتهم .. آمالى أن أراهم يعيشون حياة محترمة قائمة على التعاون المشترك

ثم رفع وجهه الى السماء ، وأردف قائلا :

- لسوف أراهم يوما هكذا .. سأرى اللحم يكسو هيكلهم العظمية ، ولن يبكى أطفالهم بعد من الجوع لانهم سيجدون كفايتهم من الطعام

- سوف تتحقق امانيك بمشيئة الله ..

ونفض « تيد » استعدادا للانصراف وهو يقول :

- يجب أن انصرف الآن يا عمى « تيد » .. وأعتزف لك أنك تركت في نفسى أثرا قويا ، لا بأقوالك ، وانما بأفعالك .. وقال « داريا » مودعا :

- أرجو أن تأتي لزيارتي بين الحين والآخر يا ولدى .. فان زيارتك تمنحنى شيئا من السعادة في هذا العالم الحزين

- لسوف آتى يا عمى ، ولكن أبى يقول ان الحاكم العام سوف يطلق سراحك في أقرب وقت ..

- اذا اطلقوا سراحى فسوف اجعلهم يقبضون على مرة أخرى .. يجب أن اتحدى قوتهم دائما بقوتي الفردية . وأقول لك الآن ان غاندى نفسه في طريقه الى السجن قريبا ..

- أرجو ألا يحدث هذا ..

- هل رأيتك ؟

- لا ..

- عندما تراه ستعرف ماذا ينبغي علينا أن نتبعه .. انه الانسان الوحيد الذى يفتح اعيننا على الطريق الصحيح نحو الاستقلال . ثم من تكون نحن ؟ اننا شعب بلا أسلحة ..

- يجب أن انصرف الان يا عمى « داريا » ..

- انصرف يا بنى .. ولكن أرجوك أن تعود لزيارتي

وعاد « تيد » الى بونا وهو يعجب لماذا تخلى « داريا » عن حياته الماضية ليتبع غاندى . لقد كان يعرف ان « داريا » رجل من الطبقة الثرية ، يحب الحياة ، ويهوى الى ملذاتها ، ويضيق بكارهيا ،

فما الذي دفع به الى هذا الطريق الجديد .. الى التشفير والحرمات
والضحجة بكل شيء ؟ ..

هل فعل هذا ارضاء لله ؟ !

ان « تيد » يهز راسه .. انه يشعر ان « داريا » يعلم تماما ان
الله غنى عن مثل هذه التضحجات ، اذن فمن اجل من ؟ من اجل
ارضاء من ؟

وخيل اليه انه يسمع هاتفا يقول :

— من اجل الانسان ..

واحس « تيد » بقلبه يخفق .. وشعر كان ومضة ما اخذت تنير
اعماق نفسه ، ولكنه اخمدتها بسرعة . انه لا يريد ان يفوض
الى اعماق نفسه .. انه شاب ، والمستقبل يبدو امامه لامعا ..
وفي هذا المستقبل تبدو صورة « آنيز لينلي » ، وان هذه الصورة
لا تبارح ذهنه .. انه يريد ان يزداد معرفة بها .. ان يراها في
حياتها الخاصة بين والديها حتى يدرك على وجه التحديد نوع هذا
الحاجز الذي يقوم الان بينه وبينها

واخذت الايام تمر وتباعد بينه وبين حياته في نيويورك ، وتقرب
بينه وبين حياته وهو طفل في هذه البلاد . وكانت صور الماضي
تترافق في مخيلته كلما مرت الايام ، وكلما عاش في تلك البلدة التي
ولد فيها ، بين اهله ، وفي لياها الحارة ، وبين الطلبة والطالبات
الذين يدرس لهم اللغة الانجليزية

وكانت « آنيز لينلي » ترسل اليه كل اسبوعين خطابا ردا على
رسائله اليومية اليها . وكان يعرف ان الحافز الذي يدفعه الى كتابة
رسالة يومية اليها ، هو شعوره بالوحشة ، انه لم يكن يجد في
حياته هذه انسانا — رجلا او امرأة — يستطيع ان يتخذه صديقا
يبادله الاسرار . وكانت التقاليد الهندية لا تسمح له بان يتخذ من
احدى الفتيات الهنديات صديقة يستريح اليها . اما الاجانب المقيمون
بالبلدة ، فلم يكن بينهم من يصلح ان يتخذه صديقا . فالمشتر والمسر
« فوردام » عجوزان ثرثاران لا يكفان عن الحديث عن ابنتهما
« روثي » التي تستكمل دراستها في اوهايو . وقد اطلعاه على

صورتها .. فاذا هي فتاة ممثلة الجسم ، بريئة الوجه ، صغيرة
الشفقين ، واسعة العينين ، يبدو انه ينقصها الكثير من الذكاء ..
اما المس « باركر » ، فكان يتجنبها رغم علمه بأنه يقسو عليها ..
انها حقا تكبره بنحو عشرين عاما . وكان يمكن ان يتخذ منها صديقة
كأمة ، ولكنها كانت من النوع الذي يجتر آلام الحياة في صمت يجعل
الوجه يبدو دائما مكتئبا ..

وهكذا كان يجد عزاءه وسلواه في كتابة الرسائل الى « آنيز »
وفي قراءة رسائلها اليه المرة بعد الاخرى . ولكن الشيء الذي ظل
يحيره هو تحفظها الشديد في رسائلها . انها لم تحاول ذات مرة ان
تتجاوز معه في حرارة الكتابة .. انه يكتب اليها عن كل شيء .. عن
نفسه ، وعن مشاعره ، وعن عمله ، وعن سكان البلدة ، وعن ابيه
... ولم ينس بطبيعة الحال ان يلمح لها بوجهه .. مجرد تلميح ..
ولكن اى فتاة ذكية تستطيع ان تدرك ما بين السطور ..

فلماذا تتخذ هذا الموقف المتحفظ ؟ !

هل هذه طبيعتها كفتاة انجليزية لا تكشف عن مشاعرها
بساطة ؟

أم .. أم ماذا ؟

وقرر ان الوقت قد حان لكي يذهب لزيارتها ، ويعرف بصفة
نهائية حقيقة شعورها نحوه !

١٢١

الفصل السابع

لقاء الحبيبين

ووصل الى كلكتا في يوم قائل الحرارة .. ومضى الى الفندق بعد رحلة مبهمة مليئة بالفبار ؟ وأسرع تابعه قبله بعد أن أودع الحقيب في الفندق ، ليعد له الحمام الساخن والشاي ، وفي ردهة الفندق تلكا « تيد » قليلا أمام مكتب الاستعلامات ، وهو يرجو أن يجد في انتظاره رسالة من « آنيز » تدعوه فيها الى زيارتها عقب وصوله . وقد وجد فعلا بطاقة دعوة ، لا للغداء ، وإنما للشاي . وكانت كلمات الدعوة الموجزة مكتوبة على ورق يحمل شعار الحاكم العام ، وكأنها تذكره بمكانتها الاجتماعية . ولكنه تذكر أن من الطبيعي أن تكتب « آنيز » - وهي تعيش مع ابنيها الحاكم في قصره - على ورق رسمي . ووقف برهة والبطاقة بين أصابعه ، ثم شعر بالدماء تتصاعد الى وجهه فجأة وهو يذكر كيف كان يفضي اليها بمشاعره الصريحة التي لا ينقصها الا الحب الصريح ..

حسنا .. لسوف يفستل ويستريح ، ثم يمضي اليها في موعد الشاي . وربما أنفق بعض الوقت في دراسة لغة الماراتي ، وكان قد قرر أن يتعلم جميع اللغات الرئيسية في الهند . وكان في الشهور الاخيرة قد استطاع ان يتعلم لفتين منها .. ولكنه لم يكن يدري على وجه التحديد ماذا سيفعل في الهند الا اذا رأى « آنيز » واستقرت علاقته معها على وضع متين وصعد الى الجناح المحجوز له بالفندق ، حيث استقبله تابعه الخاص قائلا :

- ان الحمام جاهز على الطريقة الانجليزية ياسيد ..
فرد عليه « تيد » قائلا :

على مقعد صغير مذهب ، بجانبها .. وقد اصر على أن يعرف في هذه
الزيارة موقفها منه نهائيا ..
قال لها :

— لقد جئت اليك من مسافة بعيدة جدا ، وكنت قد انتظرت
هذه الزيارة طويلا . ولو كان الامر بيدي لقممت بهذه الزيارة في
الخريف الماضي عندما ذهبت الى منطقة الاقاليم المتحدة لزيارة صديق ،
ولكنك رفضت ..

فقالت مراوغة لتغير مجرى الحديث :

— ومن هو ذلك الصديق ؟
— هندي من اصدقاء ابي .. وقد اعتدت ان ادعوه عمى .. انه
« داريا سابرو » ..

— آه .. اننى سمعت بهذا الاسم . ويقول ابي ان الحكومة كادت
ان تنعم عليه بلقب سير لولا انه انضم الى غاندى ..
— احقا ؟ ولكننى اعتقد انه ماكان ليقبل هذا الانعام ..

ولما رآى في عينيها ظلا من الاستياء ، اسرع يقول :

— ان ابي و « داريا » صديقان منذ اعوام عديدة .. ولكنهما الان
مختلفان ، لان ابي لا يؤمن ببيادى غاندى ..

ثم توقف فجأة عن الحديث ، وقد شعر انه اخطأ في محاولته
ارضاءها على حساب غاندى .. اما هي فقد ابتسمت قائلة :

— يسرنى أن يكون هذا هو رآى والدك ..
وهنا قال في اصرار :

— نعم .. ولكننى لا احب ان أحتمى وراء ابي .. فانا لا اعلم
بعد ان كان غاندى على خطأ ام على صواب ، فان هناك اشياء كثيرة
في الهند لا اعرفها .. ان الهند التى عرفتها طفلا كانت لطيفة صافية
مخلصة .. وربما كان هذا لاننى نظرت اليها بعينى طفل . اما الان
فان كل شئ يبدو امامى معقدا ، وخاصة بعد رؤية « داريا » في
السجن ، فان ماسمعته منه ضاعف من ارتباكى ..
فسألته قائلة :

— لماذا ؟ .. لقد حاول التظاهر اثناء مهرجان الامبراطورية !

وهنا قال « تيد » :

— حسنا .. اذهب الان واطلب لى بعض الطعام ، ثم استرح ،
لانى سانام يضع ساعات ..
— نعم ياسيد ..

وكانت حدائق قصر الحاكم العام تدل على الابهة وروعة الحكم .
وكانت تمتد على جوانب القصر الى مساحات واسعة لا يصل الى
نهايتها البصر . وموت المركبة التى يستقلها « تيد » بين صغين من
الاشجار العالية حتى وقفت امام باب القصر الخارجى . وهبط
« تيد » وقال لتابعه ولسائق المركبة : « يمكنكما ان تعودا بعد ساعتين
او تنتظرا اذا شئتما »

فقال التابع : « سوف ننتظر »

وصعد « تيد » الى الباب الواقع وراء بضعة سياجات مانعة
للبعوض .. ولما صلصل الجرس ، فتحه خادم من طائفة السبخ
في ملابس رسمية ، فقال له « تيد » :

— الانسة « آنيز ليلنى » ..

فقال الخادم بصوت مهذب :

— انها فى انتظارك ياسيد ..

ثم ذهب به الى غرفة الاستقبال الواقعة على يسار البهو
الضخم .. وماكاد يجلس لحظة ، حتى اقبلت « آنيز » بقماتها
الطويلة ، وبملابس التنس البيضاء .. وكان وجهها شاحبا رغم
الحمرة الخفيفة التى علتته وهى تصافح « تيد » ..

وقال لها الشاب فى لهفة ، وهو يأخذ يديها بين يديه :

— « آنيز » ؟

وراح يرنو الى وجهها الباسم ، وشعر برغبة مفاجئة فى أن ينحنى
ويقبلها .. ولكنه كان يدرك أنه لو فعل هذا لثار غضبها ..

وقالت له ببساطة :

— لقد وصلتك دعوتى كما ارى ، لانك جئت فى الوقت المحدد .
ولكننى اخشى ان يكون الجو الان غير مناسب للعب التنس ، وان
كان مناسب لان نجلس هنا فترة حتى تخف درجة الحرارة ..
وجلست على مقعد مرتفع من خشب الورد ، بينما جلس هو



— انك أنت انتى أريد التحدث عنها ، لا الامير ، ولا « داريا » ،
ولا السياسة .. بل ولا الهند ..

وتناول بعدها الصغيرة بين يديه وأبقاها برهة ، حتى اذا شعر
انها لا تتجاوب معه ، تركها برفق .. وهنا نهضت هي وقالت :
— هلم نمضى الى ساحات التنس ، فهي تقع تحت ظلال الاشجار
على اية حال .. كما ان الليل يسدل بسرعة بعد الغروب .. ولسوف
يحضر أبى ليرانا هناك ..

وسارا معا بين ممرات الحديقة التى جلس فيها عدد من السيدات
والرجال البيض تحت المظلات ، بينما راح الخدم الهنود يقدمون
اليهم الشاى والحلوى . وكان هناك عدد آخر من النساء والرجال ،
فى سن الشباب ، يلعبون التنس فى ساحاته العديدة ..

ويعد ان قامت « آنيز » بتقديم « تيد » الى ضيوف القصر ،
ذهبت به الى ساحة تنس خالية حيث خلع جاكته ، واختبر أحد
المضارب ، ثم بدا اللعب معها . وكسبت هي النقط الاولى بسرعة ،
ولما وجد انها بارعة أكثر مما كان يتوقع ، قرر ان يركز اهتمامه ،
وان يلعب بكل قوته ، حتى استطاع أخيرا ان يربح ثلاث جولات
ضد جولتين . وإخيرا قال وهو يمسح جبات عرقه :

— انك بارعة جدا فى اللعب ..

— هذا مستحيل والا لما انتصرت على ..

— لقد بذلت جهدا كبيرا فى سبيل الانتصار ..

— ان هذا من حقا ..

ولما تقدم الى منصة الشراب ، ومد يده الى كوب من شراب
الليمون المثلوج ، قالت له محذرة :
— لا .. لا .. لا تشرب من هذا الشراب البارد وانت على هذه
الحالة من الاجهاد ..

فقال وقد شعر باصرار — لا مبرر له — الا يخضع لرغبتها :

— ان الرجل الامريكى متعود على هذا ..

وهنا اشارت الى العمر الرئيسى وقالت :

— هاهو ذا أبى ..

ورأى « آنيز » رجلا انجليزيا كهلا نيقا وقورا يتقدم ببطء وهو

يتبادل التحيات مع الضيوف .. وأردفت « آنيز » قائلة :

— انه يبدو متعبا ، لان الاحوال فى الهند لا تتيح له اية فرصة
للراحة ..

وبعد ان قدمته الى ابيها ، جلس الجميع يتبادلون الحديث نحو
ربع ساعة ، وفى خلال هذه الفترة ، نظر « تيد » مرتين أو ثلاث
مرات الى « آنيز » كأنها يطلب منها أن تهض وتتمشى معه فى
الحديقة على انفراد . ولكنها تجاهلت رغبته الصامتة .. وكان يعلم
ان عليه ان يحدد موقفه معها فى هذه الزيارة ، ومن ثم اقترح عليها
— بكلمات واضحة — ان تتمشى معه فى الحديقة ، فاعتذرت بانها
لا تزال متعبة بعد مباراة التنس . وعندئذ استبد به الغضب ،
ونفض مستأذنا فى الانصراف .. فقالت له :

— أهكذا سريعا ؟ ..

— نعم .. وربما أرحل عن كلكتا بعد غد ..

وقد قصد ان يدعها تدرك أنه سيبقى يوما آخر حتى يرى هل
ستنتهز هي هذه الفرصة وتدعوه للزيارة فى اليوم التالى .. ولكنها
تجاهلت هذا القصد أيضا ..

وعاد الى غرفته فى الفندق والغضب يستبد به .. وعيئا حاول
ان ينام فى الساعات الاولى من الليل . ولما طال به الارق ، نهض
ثائرا ، وجلس الى المكتب ، وكتب الرسالة التالية :

عزيزتى « آنيز » :

« لماذا جعلتنى آتى لزيارتك ؟ .. لمساذا لم تقولى ببساطة أن
علاقتنا التى بدأت على الباخرة ليست سوى علاقة عابرة بين اثنين
من المسافرين ؟ لماذا تركتنى أرسل اليك كل هذه الخطابات ؟ ولماذا
قبلت ان أعرب لك عن حبى بين سطورها ؟ .. حسنا .. اننى أحبك
وأريد ان أتزوجك .. ان هناك فارقا كبيرا بيننا .. انه كبير كالهند
... ولكنى أحبك . فاذا كان فى مقدورك ان تبادلينى الحب ، فلن
يفرق بيننا شيء .. لا الهند .. ولا المحيط الذى تقع بين بلادى
وبلادك .. لسوف تقولين لى اننى شاب متعجل للامور .. وهكذا
قلت لى أثناء الرحلة .. اننى فعلا متعجل للامور .. وهذا هو هذا

عن جدى ، كما ورثت الاصرار عن ابي . ولهذا سوف ازورك غدا
فى الساعة الرابعة بعد الظهر لاعرف اجابتك .. ولن يمنعنى عن
هذه الزيارة شىء »

واغلق المظروف على الرسالة ، ثم نام حتى الفجر .. وبعدها
نهض متعجلا وايقت تابعه النائم امام باب غرفته ، وطلب منه ان
يحمل الرسالة الى المس « آنيز » فى قصر الحاكم العام ، وان يأتى
بالرد ..

وبعد ساعتين ، جاء التابع يحمل هذا الرد الموجز : « اننى فى
انتظارك فى الساعة الرابعة .. آنيز »

قالت له وهى تتقدم به الى غرفة الاستقبال الواقعة على يمين
البهو الكبير :

— هذه هى اطلب غرفة استقبال فى القصر .. وهى ايضا
لا تستعمل الا فى الحفلات الكبيرة .. ويمكننا ان نجلس فيها وتحدث
بهدهوء دون ان يزعجنا احد ..

احد وانا اتحدث معك الان »
فجلست بالقرب منه فى ثوبها الابيض الرقيق ، وقالت :

— هل ترى ان من الضرورى الحديث عن .. عن ..
— نعم .. نعم .. هذا ضرورى جدا ..
— ولكنك لازلت .. اقصد .. لا يزال امامك وقت طويل قبل
ان تفكر فى الزواج ..

فنظرت اليها عاتبا وقال :

— لقد امضيت طفولتى فى الهند .. والهند بطبيعتها تنضج
الانسان بسرعة ، ومن ثم فانا اشعر كانى الان فى الثلاثين من عمري
وحاولت هى ان تنشغل بترتيب بعض الوسائل حولها ، بينما
استطرد هو يقول :

— المهم الان ان الوقت قد حان لكى اعرف اتجاهك يا « آنيز »
.. ان لوالدك نهجه الخاص فى الحياة ، وهو نفس نهج والدى ..
ولكننى قد اتخذ لحياتى نهجا مختلفا .. ولهذا اريد ان اطمنن الى

انك ستكونين بجانبى ..

فقالت وهى تركز نظراتها على وجهه :

— ماذا تعنى بهذا القول ؟

وكان صوته لا يزال هادئا وهو يقول :

— انت تعرفين ماذا اعنى ..

فقالت باصرار :

— اريد ان اسمع منك ماتعنيه ..

— اننى اخشى مما ساقوله .. ولكن لا مندوحة من قوله .. بل
يجب ان اقلبه لك انت اولا ، وقيل كل انسان .. وهو انه على
الرغم من زيارة ولى العهد للبلاد ، فان الجو يتدر بالاضطرابات
والثورات .. وان « داريا » وغاندى فى جانب ، وابى وابوك فى الجانب
الآخر . وانا حتى الان لا ادرى فى اى جانب ساكون يا « آنيز » ..
اننى فى حاجة الى مزيد من الوقت لاقدر الجانب الذى سانضم
اليه . وان ما اريد ان اعرفه الان هو : هل ستقفين معى ايا كان
الجانب الذى ساختار !

فهمت قائلة :

— ما اغرب ماتقول ؟

— اية غرابة فى هذا ؟

— ان من يسمعك يحسبك تدبر امرا خطيرا فى الخفاء !

— ربما كان الامر بالنسبة الى اكثر من خطير ..!

فابتسمت ببساطة ، وقالت :

— اننى لا اتصور وقوع اى شىء خطير لك او بسببك ..

وكانت تقصد انه لا يمكن ان يحدث شىء خطير لشاب امرىكى
ينحدر من اسرة « ماكارد » المشهورة ..

ثم اردفت قائلة :

— الا ترى انك تصور الامور بطريقة مسرحية !

— وما الضرر فى هذا ؟ ..

— انك تدفعنى الى الرغبة فى الضحك ..

فتنهد بعمق ، وقال :

— اننا نلف وندور على غير جدوى . ولماذا يحسن ان نتزم

الصراحة يا « آنيز » .. هل تحبينى ؟

فاحت راسها قليلا وقالت :

- لست أدري ..

فقال بحماس :

- لعلك تحبينى وأنت لا تعرفين ..

- ان هناك اشياء كثيرة أهم من مجرد الحب ..

- مجرد الحب ؟!

- نعم .. ان الانسان لا ينبغي ان يقرر مصير حياته على أساس

العاطفة وحدها ..

- هذا ما افعله ..

- ان هذه طبيعة المرأة ..

فقال بشيء من المرارة :

- ماعدا المرأة الإنجليزية كما اظن !

فاومت براسها ببرود ، وقالت :

- وخاصة المرأة الإنجليزية التى تعيش فى الهند .. وفى هذه

الفترة بالذات !

- ولماذا هذه الفترة بالذات يا « آنيز » ؟

فقال وقد زوت حاجيتها مفكرة :

- يمكنك ان تتصور هذا الموقف عندما تنضم انت الى غاندى ،

وانا زوجتك .. ان هذا الموقف سيجعلنى انفصل تماما عن الحياة

التي نشأت فيها .. عن والدى ، وعن بلادى ، وعن تقاليدى .. وعن

كل شيء اعتر به !

فقال :

- ولكنه لن يفصلك عنى ، وهذا هو المهم ..

- آه .. نعم .. ربما .. ولكننى لم أتبادل معك بعد هذا الحب

الذى يحتم مثل هذه التضحيات .. لا يزال فى الوقت مسع

للتراجع !

فخفق قلبه بعنف ، وقد ادرك ان هناك احتمالا فى أن تحبه ..

ان حبه له الان ليس كبيرا .. ولكن من الممكن أن يكبر مع الايام .

ومن ثم قال فى أمل :

- اذن فأنت تحبيننى .. قليلا !

- ان ما اعرفه اننى قد احبك يوما .. وانا أريد أن احبك

يا « تيد » لو انى فقط تأكدت ..

- تأكدت من أى شيء ؟!

- من ان حبه لك لن يحطم حياتى التى نشأت عليها ..

فنظر اليها فى دهشة ولهفة ، وقال :

- ماذا تعنين يا « آنيز » ؟ !

وفجأة قالت :

- ان أسهل طريقة لتوضيح الامر ، هى ان اقول انك لو كنت

انجليزيا لما ترددت فى الزواج بك .. ولكنك أمريكى !

وفوجيء « تيد » بهذا التصريح ، وقال فى دهشة بالغة :

- ما علاقة هذا بالموضوع ؟ .. انك تدهشيننى يا « آنيز » ..

ماكنت اظن انك متعصبة لجنسيته الى هذا الحد !

- ليس فى الامر اى تعصب يا « تيد » .. انك ، كأمريكى ،

لا تستطيع ان تفهم بسهولة وجهات النظر الإنجليزية . انك لاتعرف

حقيقة مسئولياتنا هنا . انك قد تفضب منى أشد الفضب - حتى

وانا زوجتك - اذا انضممت الى جانب أبى فى هذا الصراع ، وذلك

عندما تعتقد انه مخطيء . اننى - بصراحة يا « تيد » - اعرف موقفى

من الان .. اننى سأقف بجانب قومي مهما تكن الظروف ، لانهم

على صواب فى رأيى ..

- آه .. فهمت ..

وكان قد فهم فعلا .. فهم انها لا يمكن قط أن تتزوجه لذاته ..

انها ، فى هذا الموقف تبدو كاية فتاة انجليزية من طبقته .. انها

تضع مسئولياتها نحو بلادها وقومها قبل عواطفها . ولم يسهه

الا أن يشعر بالاعجاب نحوها ، مهما يكن ادراكه لخطئها .. !

وفجأة قال لها :

- لشد ما أتمنى لو أخذتك الان بين ذراعى يا حبيبتى .. هل

تسمحين لى بهذا ؟!

فهزت راسها قائلة :

- لا .. لا .. لا .. أرجوك يا « تيد » .. اننى لا أريد ان أتخذ



قراراً ضدك . ولاشك أن قرارى سيكون ضدك لو أنك فعلت هذا .. !

فنهض وقال وهو يأخذ يدها بين يديه ، دون أن تسحبها منه :
- حسناً إذن .. سنترك الأمر كما هو فى الوقت الحاضر ...
أم لعلك تريدان أن ننفض أيدينا منه تماماً ؟
فصمتت برهة ثم قالت :

- أفتى أسفة يا « تيد » .. لو كنت الآن أصفر سناً بعشر سنوات ، لما ترددت لحظة فى القاء نفسى بين ذراعيك . حسناً ..
ليبقى الأمر كما هو الآن حتى يزداد الموقف وضوحاً ..
- أى موقف تعنين ؟ ..
- موقفى .. وموقفك ؟

وقرر « تيد » أن يعود الى بونا عن طريق منطقة الاقاليم المتحدة .. وقد اتاحت له عودته من هذا الطريق ان يرى الهند على حقيقتها .. فرأى سكان القرى وهم يعيشون حياة كلها جوع وحرمان وعرى ومرض وفاقة .. رأى الوجوه الشاحبة ، والاجسام الهزيلة ، والطفولة المذبذبة ، والارض التى لا تجد الايدى العاملة القوية ، والبيوت المصنوعة من الطين ، ولمس اثر الكوارث الطبيعية ، والمجاعات المتواليه ..

لقد رأى وجهاً جديداً للهند لم يكن يعرفه وهو يعيش مع أبيه فى بونا حيث المؤسسة الضخمة التى يجتمع فيها أبناء المتأخرين من الهنود ..

وعاد الى بونا بعد اسابيع بقلب مليء بالهموم والاحزان ، حتى كاد ان ينسى ومضة الحب التى اضاءته بضعة شهور ..

واستقبله والده فى شئ من العتاب الصامت - كعادته - ثم قال له :

- لقد وزعت حصصك على المدرسين المساعدين .. فهل تحب ان أعيدما الى جدولك ؟!

فاوماً « تيد » برأسه وقال : « اجل يا أبى »
وكان يعرف أن اقامته فى بونا لن تقطول .. لقد شعر أثناء رحلته

العودة أن قبسا من شعلة قدسية اضاء قلبه وبدأ يرشده الى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه فى الحياة .. ولكن معالم هذا الطريق لم تكن قد وضحت بعد !

ولم تلبث أن وضحت له هذه المعالم فى ذات ليلة من ليالى شهر يونيه الحارة الحارقة ، وبعد خلاف عنيف مع أبيه لأول مرة .. وكان سبب الخلاف شاب هندى يدعى جيهار - ابن رجل موفور الثراء من طائفة السيخ يدعى السردار سنغ - وكان جيهار ، عقب تخرجه فى قسم الاداب بجامعة « ماكارند » بونا ، قد اعلن لآبيه وللسيد « دافيد ماكارند » انه قرر أن يتخلى عن كل شئ فى الدنيا ليحجوب البلاد مباشرة بالقومية والوطنية ، متتبعا خطى غاندى فى بعث الوعى الاستقلالى بين جموع الشعب فى القرى والغابات ..

ونار والده ثورة عارمة ، وأسرع الى « دافيد » يحمله مسئولية هذه « الكارثة » التى ستحرمه من ابنه الوحيد . وبذل « دافيد » كل جهد ممكن لاقتناع الشاب « جيهار » ليتخلى عن فكرته ، ويمضى مع أبيه الى ضياعه الواسعة .. لكن الشاب ظل على اصراره بكل ادب واحترام . ولما عجز « دافيد » عن اقناعه - وكان جالسا فى غرفة المكتب معه ومع ابنه « تيد » - قال له فى النهاية :

- حسناً يا « جيهار » .. اننى لا أستطيع أن أرغمك على ان تعيش حياة معينة . ولكن هناك عبارات يجب الا نغفلها ونحن نقرر مصائرنا . ولهذا سوف اتحدث معك غداً مرة اخرى بعد ان تفكر هذه الليلة جيداً فى واجباتك نحو أبىك ، ونحو اسرتك التى تعلق عليك آمالها .. بل وفى وطنك الذى يمكن ان تخدمه بوسائل مختلفة ..

فنهض « جيهار » وقال بصوت خافت مهذب :
- حسناً يا سيدى .. لسوف اعود اليك غداً ..

وبعد انصرافه ، نهض « دافيد » ومد يده ليطفىء المصباح ، ولكن ابنه « تيد » قابل له فجأة : « انتظر يا أبى لحظة .. »

فنظر « دافيد » اليه ويده على المصباح ، وقال : « ماذا يا بنى ؟ »
- اننى أرجو أن تكف عن محاولة اقتناع « جيهار » بالتخلى عن فكرته ..

فقال الوالد بشئ من الحدة : « لماذا ؟ »

— لأن فكرة « جيهار » تقوم على رسالة انسانية ووطنية ضخمة ..
 .. انه يريد ان يوظف في الهند كلها روح البذل والتضحية
 — اننى لا افهم ماذا تريد ان تقول ..
 — ان « جيهار » قد يكون « مسيح » الهند ..
 — ان هذا الحاد وكفر يا « تيد » .. أو على الأقل جنون !
 وقال « تيد » وقد تألقت عيناه ببريق غريب :
 — لشد ما اتمنى لو ان هذه الفكرة قد خطرت ببالي قبل « جيهار »
 .. ولكنى لست هنديا ..
 فتهفت الوالد ثائرا :
 — « تيد » لن اسمع منك بعد ذلك شيئا ..
 — ولكن يا أبى ..
 — لقد تأخر الوقت جدا .. وأنا في أشد حالات التعب !
 — حسنا يا أبى .. ولكننى أقول بصراحة اننى سوف أتحدث مع
 « جيهار » غدا في هذا الشأن ..
 فقال الوالد في هدوء مفاجيء :
 — اننى أرجوك لا تفعل .. فان على واجبا نحو السردار سنغ ..
 انه لشيء مؤلم ان تكون السبب في حرمانه من ابنه الوحيد ..
 — هل افهم من هذا انك ستحاول ان تمنعه من تحقيق هدفه ؟
 — طبعاً لا .. اننى سأحاول ان اقنعه بانه ليس من الخير ان يخرج
 عن متاع الدنيا ويعصى رغبات أبيه ..
 — ولكن يا أبى ..
 — ولا كلمة بعد ذلك ! ..

وأطفأ الوالد الصباح ، ثم سعد الى غرفته .. وبقي « تيد » واقفا
 في مكانه يفكر فيما قاله « جيهار » بلهجة الهادى المطمئن الواثق مما
 ينوى ان يفعل ، المصر على موقفه اصرارا لا تزحزحه الجبال ..
 ورفع « تيد » عينيه عبر اسلاك النفاذة الى الظلام .. ثم الى
 السماء .. وراح يتساءل : من أين هبط هذا الضوء الى قلب
 « جيهار » من أين انبثقت هذه الشعلة المقدسة فى أعماق نفسه ؟
 وتمنى لو انبثقت هذه الشعلة المقدسة ايضا فى أعماق نفسه لكي
 يرى معالم طريقه فى الحياة . ولما لم تتحقق أمنيه ، أوى الى

فراشه بقلب مليء بالايجاز والقلق ..

ونفض مع الفجر ، وذهب الى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالجامعة ،
 حيث اعتاد الطلبة المسيحيون أن يترددوا عليها فى بكور الصباح
 للصلاة .. وكان يتوقع ان يرى « جيهار » فيها . وقد حدث ما
 توقعه ، اذ مالبت أن شاهده واقفا بجوار المحراب ، وقد رفع عينيه
 الى اعلى ، كأنما يرى شيئا لا يراه أحد غيره
 وقال « تيد » : « جيهار ! »

واستدار « جيهار » ، ثم ابتسم وقال : « استاذى ! »

— كنت اعتقد انى سأجرك هنا . حسنا .. لتتحدث معا فى هذا
 الامر الذى أزعج أبى واباك . كيف لم تخبرنى قبل اليوم بما عقدت
 عليه العزم يا « جيهار » ؟

فقال « جيهار » بصراحة :

— لاننى لم اكن اعرفك تماما .. ولم اكن أعرف ان أمورى تهتمك
 فبدا الاهتمام على وجه « تيد » وقال :

— يبدو اننى لم احسن القيام بواجبى كمدرس لك .. لاننى لو
 احسنته لجعلتك تعرف اننى مهتم بأمر كل تلميذ من تلاميذى ..
 حسنا .. هلم نجلس هنا وتبادل الحديث بهدوء ..

وجلس الاثنان على مقعد خشبى بالقرب من المحراب . وقال
 « تيد » وهو يرى الابتسامة لا تزال تسطع على وجه « جيهار » :

— ان تذهب مع أبيك الى بلدتكم اليوم يا « جيهار » ؟

فقال بهدوء المعتاد :

— بل سأذهب معه وأعيش فى ظل الاسرة بعض الوقت حتى يفهم

تماما حقيقة مشاعرى ..

— واذا لم يفهم ! ؟

وظل وجه « جيهار » على هدوئه ووقاره ، وهو يرد قائلا :

— فى هذه الحالة يجب ان أمضى الى سيبلى ..

— انك لا تزال فى ريعان الشباب يا « جيهار » !

— اننى لست أصغر من ان أعرف واجبى .. فلو اننى لم أر ما يجب

ان أفعل ، لقبلت ان أعيش مع أبى ، أو ان أجدو محاميا ، أو أشتغل

بالسياسة محترفا . ولكننى أدركت حقيقة ما ينهى أن أفعله فى

حياتى ..

— انك يا « جيهار » لا تستطيع في الواقع ان تستجدي طعامك كما تفعل طائفة السادو ، لان الناس جميعا يعرفون من انت ..

— اننى لن اكون بحاجة للاستجداء لان الله سيمنحنى ما انا بحاجة اليه ..

— ان هذا الامر يبدو لى غريبا وخطيرا فى آن واحد ..

فقال « جيهار » بصوت هادىء مهذب :

— لانك آت من القرب .. اما نحن الهنود ، فاننا لا نرى غرابية ولا خطرا فى ان يصبح الواحد منا « سادو » يطوف القرى مبشرا ، متخلياً عن متاع الحياة الدنيا وزينتها .. ان البلاد زاخرة بهذه الطائفة . ولكننى ساكون « سادو » من نوع آخر .. « سادو » لا ينتمى الى مذهب معين . لانى لو انضمت الى أحد هذه المذاهب، فسوف يغضب اتباع المذاهب الاخرى ..

— اذن فقد قررت ان تحمل وعاء و « بطانية » و ..

— نعم .. سأحمل وعائى و « بطانيتى » ، وسارتدى الباردة الصفراء حتى يعرف الجميع اننى « سادو » ، وسأطوف البلاد مبشرا بعهد جديد ..

وصمت « تيد » برهة قيل أن يقول :

— ان كل ما أستطيع أن أقوله لك الان انك تضحى بمباهج الحياة .. مثل « داريا » .. لقد رأيت فى السجن ..

وكانت الهند كلها قد عرفت باسم « داريا » .. ومن ثم تألقت عينا « جيهار » وهو يقول :

— هل رأيت حقا ؟ ..

— نعم .. وقد ضحى هو أيضا بكل شيء من أجل وطنه .. ولكنّه ليس شاباً مثلك . لقد ذاق طعم الحياة .. لقد تزوج وأنجب واستمتع بمباهج الدنيا سنوات طويلة .. ولما فقد زوجته وابناءه ، اتخذ هذا الطريق الجديد ..

فقال « جيهار » وقد شردت نظراته :

— اننى فى غير حاجة لان انتظر .. لقد رأيت رؤيا .. وربما لم ير « داريا » مثل هذه الرؤيا .. او لعل مأساة أسرته هى « الرؤيا » التى دفعت به الى هذه الحياة الجديدة ..

وقال « تيد » وهو يحاول اخفاء دهشته :

— وما هذه الرؤيا التى رأيتها ؟ ..

— رأيت ملاكا يرسم لى معالم الطريق التى ينبغى أن أسلكها كى انظر بالفردوس بعد مماتى ، ويكتب لى فيه الخلود

فتنهذ « تيد » وقال :

— اننى أرجو ألا تكون هذه الرؤية فقط هى السبب فى تغيير حياتك كلها ..

فاجاب « جيهار » قائلا :

— لقد تغيرت حياتى فعلا ..

ولم يستطيع « تيد » أن يقول بعد ذلك شيئا ..

وفى نفس اليوم .. وفى الساعة السابعة مساء ، كان « تيد » جالسا فى الردهة الكبرى يشرب الشاي ويتناول بعض الفاكهة عندما مر امامه « جيهار » وحياءه بأدب ثم تقدم الى غرفة المكتب حيث كان « دافيد » جالسا فى انتظاره . وظل « تيد » فى مكانه يتوقع أن يستدعيه والده ليشاركه فى المناقشة مع « جيهار » .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث . وأخيرا ، بعد ساعة ، خرج « جيهار » شاحب الوجه، مرهق السمات ، ومر به فى صمت وهو يحييه تحية الهند التقليدية ، ثم انصرف ..

ونفض « تيد » ودخل غرفة المكتب حيث وجد اياه يتصفح بعض الاوراق ، والقلق والاهتمام باديان على وجهه ..

وقال « تيد » بعد ان ظل واقفا برهة : « أبى .. »

ورفع الوالد وجهه اليه وقال : « ماذا ياتيد ؟ »

— كيف الحال ؟

— اتعنى حال « جيهار » ؟ اننى واثق الان ان المسكين فاقد العقل .. انه بدأ يتحدث عن الرؤى ..

وقرر « تيد » فى نفسه أن يستجمع شجاعته ليقف بجانب « جيهار » ، ومن ثم قال :

— ان الكتب السماوية مليئة بمثل هذه الظواهر ..

فحملق « دافيد » فى ابنه مدهوشا وقال :

Looloo

www.dvd4arab.com

— هل تعنى انك تبرر موقف « جيهار » ؟
— اريد ان اقول ان ما جاء في الكتب المقدسة يبرر حدوث مثل
هذه الرؤيا ..
فرد الوالد قائلا بحزم : « ان هذا آخر ما كنت اتوقعه من خريجي
جامعاتي »

وصمت « تيد » برهة قبل ان يقول :
— اننى اسأل : هل وجد « جيهار » اخيرا الطريق السليم لخدمة
البشرية ؟

— ماذا تعنى ؟

— اعنى ان الطريقة الامريكية القائمة على بناء المدارس والمعاهد
والكنائس والمستشفيات فقط — كما هو حادث هنا — لم تحقق
الهدف المنشود ، فالقرى كما هي .. كل شيء فيها لم يتغير ..
الفقر ، والبؤس ، والاقطاع ، واستبداد الملاك بالزارعين .. وغلبة
الشر على الخير ..
فقال الوالد :

— ان هذه الظواهر الاجتماعية كانت موجودة ، وستظل قائمة الى
الابد ..

وهنا صاح « تيد » في احتجاج :

— اذن ما جدوى هذه الخدمات ؟

ولما رأى القلق ينتشر على وجه ابيه ، استطرد يقول بنفس الحماس :
— ان « جيهار » على حق . وانى اتمنى لو كانت لدى الشجاعة
الكافية لكى اخذو حذوه ، واكرس حياتي لخدمة الانسان وتحقيق
العدالة الاجتماعية .. هذه هي روح الدين ..

وارتسمت فى عيني ابيه نظرة فزع .. ولم يستطع « تيد » ان
يحتمل اكثر من هذا ، فاستدار وانصرف بخطوات سريعة ..
وراح يتساءل وهو يمضى الى غرفته : ماذا قلت ؟ .. هل قلت
اننى اتمنى ان افعل مثل « جيهار » ؟ أى ان اتخلى عن كل شيء ،
وأضئ فى القرى معلما موازيا خادما للانسانية المعذبة ؟

وفجأة توقف فى وسط غرفته الفسيحة .. لقد خيل اليه انه
يرى فى الظلام وجها ينم عن الالم والعذاب والحزن والحرمان ..

وجه رجل هندي بائس من اولئك الذين يعيشون فى القرى مهدين
بالموت جوعاً فى كل لحظة ..

وخيل اليه انه يسمع صوتا يقول : « وانا .. اليس لى امل فى
حياة أفضل ! »

وفيما هو يحملق فى ذلك الوجه الحزين البائس ، اذ به يسمع باب
مكتب ابيه يغلَق ..

وشعر « تيد » اخيرا انه رأى معانم الطريق واضحة امامه .. لقد
انثقت الشعلة المقدسة فى قلبه اخيرا .. مضيفة ساطعة . وبلغ
من سعادته انه ضحك لنفسه ، وتمنى لو استطاع ان يقفز فى الهواء ،
أو يجرى ، أو يرقص . اخيرا عرف طريقه الجديد .. لسوف يرحل
عن بونا ليعيش فى احدى القرى . فما أبسط هذا القرار الذى
احتاج الى كل هذه المشهور ليصل اليه .. ألم يقل له داريا : « اذهب
الى القرى لترى حقيقة الاوضاع فى الهند » .. اذن لسوف يذهب ،
وسوف يعيش حياته هناك .. فى تلك القرية الشمالية التى رآها
اتناء عودته ، وقضى فيها يوما كاملا ..
وقال لنفسه :

— لماذا اقتفى اثر ابنى ؟ .. اليس من حقى ان اعيش كما اريد ؟ ..
الآن ابنى هو الذى اوجدنى فى هذه الحياة يكون له الحق فى رسم
منهج حياتى كما يريد ؟ لا .. لا .. لسوف اتركه .. بل يجب ان
اتركه لكى اعيش بمفردى مع الهند ومع نفسى ! ..

وظل واقفا منتشيا بهذه الفكرة .. بهذا القرار الاخير .. آه ..
ما اسعد الانسان الذى يهتدى فجأة الى طريقه فى الحياة ؟ .. انها
سعادة اولئك القديسين والرسل والانبياء .. السعادة الالهية
المقدسة .. سعادة الانسان الذى لا يهجمه شيء من متاع الدنيا
وزينتها ، لانه يستمد المتاع والزينة من تحقيق رسالته التى كرس
كياها من اجلها ..

وجلس فى هدوء ، وقد شاع السلام والرضى فى اعماق نفسه .
وراح يفكر فيما ينبغي اتخاذه من خطوات لتحقيق هدفه . وتذكر
قرية فاهى ، وتصور مايمكن ان يفعله فيها ومع اهله . نعم ..
لنسوف يذهب اليها فى تواضع ليتعلم .. ويعلم ..
ويستفيد ..

الفصل الثامن

مفاجآت الحب

قال « دافيد » لابنه تيد :

– اننى لا أستطيع ان أفهمك يابنى .. !

– وأنا لا أتوقع أن تفهمنى يا أبى ..!

وكانا جالسين الى مائدة العشاء فى البيت الكبير المترف . وكان الإرهاق يبدو بوضوح على وجه الوالد بعد يوم بلغت حرارته حدا لا يطلق . وكانت الظواهر الجوية تنم على أن الأمطار الموسمية توشك أن تنهمر فى أية لحظة ، وقد تأكد لدى الجميع أنها لن تتأخر عن منتصف الليل ، وفى الوقت نفسه كان الجو ساكنا جدا ، والهواء مشيعا بالرطوبة ، بحيث لم يستطع أحدهما أن يرغم نفسه على الأكل . ولما فرغ الخدم من حمل اوانى الطعام عن المائدة ، عاد الوالد يقول :

– هل أفهم من قرارك هذا أنك رفضت يدك تماما من فكرة الزواج ؟

– لا .. طبعاً .. اننى سأرحب بـ « آنيز » اذا قبلت الحياة معى فى تلك القرية ..

فقال الوالد فى اشفاق :

– أرجو أن تكون أعقل واحكم من أن تعرض عليها امرا كهذا ..
وضحك « تيد » ..

وكان طيلة اليوم يشعر بسعادة لآحد لها ، وهو يضع ملاسته اللازمة وحاجياته الضرورية فى الحقائب التى سيجلبها معه الى قرية فاعى ، حيث قرر ان يبني لنفسه بيتا صغيرا من الطين بعينيه .
كما يعيش اى مواطن فآير فيها ..

ولم يكن هناك - في رايه - اي سبب يبرر ارجاءه لتنفيذ هذا القرار ، لاسيما وقد بدأت العطلة المدرسية التي ستستمر أربعة اشهر ..

وسأله الوالد بصوت جاف :

- هل هناك مايدعو الي الضحك ؟..

- لا ياأبي .. ولكنني اعتقد ان الحافز الذي جعل أمي تهجر أمريكا لتعيش معك هنا ، في بونا ، قد يجعل « آنيز » تحذو حذوها ..

- ولكن الامر جد مختلف ..

ولم يستطع الوالد ان يوضح هذا الاختلاف .. وبدلا من هذا قرر في نفسه فحاة ان يكتب رسالة الي « آنيز » - دون ان يعرف « تيد » - ويطلب منها ان تساعد في اقناع هذا الشاب المتهور للتخلي عن فكرته الرهيبة هذه .. وليجعل هذا التعاون بينهما سرا .. وليكتب لها عن ابنه ، وعن مميزاته ، وعن النواحي الكثيرة التي يمكن ان يستفيد منها اذا هو تزوج من فتاة عاقلة زينة مثقفة مثلها ..

وقال « تيد » بصوت كله التفاؤل :

- لسوف أتجول في القرى بضعة أيام قبل ان أستقر في قرية فاهي ..

وقال الوالد ليثيره :

- انتي مندهش كيف تركت شابا هنديا مثل « جيهار » يؤثر عليك كل هذا التأثير !

- لا .. ليس « جيهار » وحده .. بل ولا « داريا » ايضا .. وانما هي رغبتني في ان اتخلي عن كل شيء امتلكه عن طريقك او عن طريق جدي ، رغم اعترافي بجميلكما طبعاً ، لكي أعيش لنفسى وبنفسى .. لا كواحد من « آل ماكارد »

ولم يجب « دافيد » بشيء .. وانما تذكر ماحدث في شبابه بينه وبين ابيه ، عندما قرر ان ينفصل عنه ليعيش بالاسلوب الذي قرره لنفسه . وراى اخيرا ان يبذل جهده لكي يظفر بمساعدة « آنيز » في هذا الشأن ..

وقبل ان يقول شيئا ، أقبل أحد الخدم وقال :

- ان السيدة والسيد « فوردام » في ردمة الانتظار - دعهما يقبلان ..

ولم يكن الضيوف اثنين فقط ، وانما ثلاثة .. ذلك ان المستر والمسز « فوردام » كانا قد اصطحبا معهما ابنتهما الشابة « روثي » ، الوافدة في ذلك اليوم من امريكا . وقد اقبلت بجمسها المستدير الممتلئ ، وشعرها الذهبي ، وشفتيها الحمراء جدا ، وعينيها الواسعتين البرشتين ، وابتسامتها التي لا تكاد تفارق شفتيها .. وقالت امها وهي تكاد تنفجر من فرط الرهو :

- ابنتنا « روثي » يا دكتور « ماكارد » .. وهذا هو « ماكارد » الابن يا « روثي » .. نرجو المذرة لحضورنا هكذا بلا موعد سابق .. ولكننا نستطع ان ننظر ..

وقال « دافيد » باسمها وهو يتذكر أنه نسي أن يقول لـ « تيد » ان « روثي » ابنة المستر « فوردام » ، ورفيقة طفولته ، سوف تصل الي بونا في ذلك اليوم قادمة من امريكا ..

- آه .. لقد جاءت « روثي » اخيرا .. تهنئي لك يا ابنتي بسلامة الوصول ..

وقالت الوالدة :

- نعم .. ومن حسن الحظ انها وصلت قبل انهيار الامطار الموسمية .. والا لحاصرنا في الطريق ..

وقال الوالد وهو يتطلع الي ابنته في حب وحنان :

- لقد ذهبت الي بومباي لاستقبالها ومرافقتها الي هنا .. ثم اصاف معايشا :
- اليست جميلة ؟

وصاحت « روثي » في احتجاج ضاحك :
- اوه .. ماهذا يا ابي ؟

وقالت امها بحنان :

- ان اباك لم يتغير يا حبيبتى !

وهتفت « روثي » ضاحكة للجميع :
- انه قطع !..

وفتحت شفتيها الحمراء جدا ، وكشفت عن أسنانها البيضاء اللامعة وهي ترسل ضحكاتها العذبة التي أشاعت في جو الغرفة تيارا من البهجة والانشراح ..

وقالت المسز « فوردام » وهي تنظر الى ذراعى ابنتها :
- انك ترتدين فستانا قصير الاكمام يا « روثى » ... وهذا لا يليق هنا .. احرضى منذ الغد على ارتداء فستان له كمان اطول ..
- حسنا يا اماه ..

ونظر الجميع الى ذراعى « روثى » البيضاءوين المستديرين الجميلين . وكان « تيد » اجراهم نظرا وهو لا يكف عن التسعور بالعجب والتساؤل منذ راي هذه الفتاة « روثى » وهي تدخل الغرفة مع ابويها ..
اهى نفسها الطفلة الصغيرة التى كان يخجل من اللعب معها وهو طفل ؟ !

ايمن ان تتحول تلك الطفلة الثقيلة الظل الى هذه الفادةالضحكة المفعمة بالانوثة ، والتي تبدو كأنها زهرة اغتسلت من فورها بانداء الصباح ؟

انها قد تبدو غيبية بعض الشيء اذا قورنت بـ « آنيز » .. ولكن الواضح انها ذات مزاج هادىء وطبع لين .. وانه ليذكر قول جده له ذات يوم : « اذا شئت ان تتزوج يا « تيد » ، فتزوج ذات الطبع الهادىء اللين .. لان ذات الطبع الحاد قد تدمر حياة زوجها ! »

وقال « تيد » لابه : « هل نخبر آل « فوردام » ؟
- نعم .. بشرط ان تقول لهم اننى غير موافق ..
وقال المستر « فوردام » وقد تار فضوله كالمعتاد : « عه ! .. ماذا حدث ؟ .. »

فرد « تيد » قائلا : « لقد قررت ان اعيش في قرية هندية .. »
فقالت المسز « فوردام » : « طول العمر ؟ !
- لا أستطيع ان اجزم الان ..
وعادت المسز « فوردام » تقول :
- ولكن ما اعجب ان تترك اباك .. وهذا البيت الرائع .. وكل

شئ من اجل .. من اجل ماذا ؟ ..
وقال المستر « فوردام » :

- أستطيع القول اننا سنراه بيننا في نهاية العطلة المدرسية ..
وعاد « تيد » يقول : « ربما » ..

واستطرد المستر « فوردام » يقول : ان كثيرا من الشبان يعتقدون ان في مقدورهم ان يفعلوا شيئاً جديدا . واتذكر اننى كانت لى مثل هذه الاحلام وانا شاب .. ولكننى لم احلم قط بان اعيش في قرية ، لان الحياة فيها لا تحتمل ! ..

وفجأة قال « تيد » : « اننى لا ادرى ماذا سيكون موقف السلطات الحكومية من فكرتى هذه في الوقت الحاضر ... »
ثم استطرد قائلا ليجيب على نظرات تساؤلهم :
- ان هذه السلطات قد تظن اننى باقامتى بين البؤساء والفقراء انها اتخذ جانب الثورة !

وهنا قال والده :
- اطمن من هذه الناحية ، فاننى ساتفاهم مع الحاكم العام في هذا الشأن ..
وقالت « روثى » :

- اعتقد ان الامر لا يخلو من طرافة .. لقد احببت دائما الفلاحين الهنود ، وهم عادة اوفياء يقدرون الجميل .. وليسوا متكبرين مثل الهنود المتعلمين . لقد كانت معى في جامعة اوهيو طالبة هندية ابنة ائمة الامراء . ورغم انه من اصغر امراء الهند شائنا ، الا انها كانت تترفع عن الحديث معى وتحقرنى ! ..

ولم يجب احد على هذا ، الى ان قالت المسز « فوردام » :
- ارجو ان تكونى قد صفحت عنها ياغريزتى ..
- لقد تركتها لشانها ولم احاول ان ازعجها ..
فقالت الام : « كان ينبغى ان تصلى من اجلها .. »
- لم ار مايدعو لهذا ..

وضحك « تيد » وقد شعر بالميل الى « روثى » .. الميل الخالى من الاعجاب او الافتتان .. وقبل ان يقول شيئا ، قال المستر « فوردام » :



— يحسن أن نعود الآن الى البيت حتى نترك السيدين يواصلان
حديثهما على انفراد ..
وهنا هتفت « روثي » قائلة وقد انسمعت عينها ، وارهفت
أذنيها ..

— أها ؟! .. اسمعوا ..
وأرهف الجميع أذانهم . وإذا هم يسمعون عويل الرياح وهى
تتجمع وتهب من بعيد ثم تقترب تدريجيا .. ثم اذا بهم يسمعون
صوت انهيار المطر ..

لقد وصلت الامطار الموسمية أخيرا ..

وصاح المستر « فوردام » :

— هلم نجرى الى البيت قبل أن تحاصرنا هنا ..

واندفع الجميع من باب الشرفة الأرضية يهرعون .. ووقف
« تيد » براقبهم ، فرأى المستر « فوردام » يندفع متقدما ومن ورائه
زوجته ، وقد رفعت ذيل ثوبها لتغطي رأسها .. أما « روثي »
فلم تجر على الإطلاق ، وإنما سارعت متمهلة .. وقد رفعت وجهها
لتتلقى المطر المنهمر ، وبسطت ذراعيها ، بينما أخذت الرياح تعبت
بخصلات شعرها حتى فكت عقصته وتركته يسترسل على كنفها .
إنها لم تكن خائفة .. وهذا مازاد من ميل « تيد » إليها ..

وقالت « آنيز » فى الرسالة التى ردت بها على رسالة « دافيد ماركارد »
والد « تيد » :

« ... اننى أعجب بتيد .. ولكننى فى ذات الوقت أرى أن من
المستحيل عليه أن يحقق شيئا بهذه التضحية التى سيقوم بها ..
إن كل مجهوداته ستذهب سدى . وصدقنى يادكتور « ماركارد »
... اننى أشعر بالفخر لهذه الثقة التى وضعتها فى ، ولكننى أصارحك
باننى لم أتفق مع « تيد » على شيء .. لم تفاهم على أى شيء ..
بل ربما كان العكس صحيحا . أى أننا افترقنا ونحن مختلفان .
لقد نشأت كفتاة انجليزية فى الهند .. ولا أستطيع إلا أن أقدر
مسئوليأتى كما ينبى ، وكما يملئها على الواجب . واعتقد أنه
لا يسمعا إلا أن ننتظر حتى يفيق « تيد » من أحلامه ، ولكننى فى

الوقت نفسه أرى أنه ليس هناك أية ارتباطات خاصة بينى وبينه
... فإذا كتب الى فى هذا الشأن ، فسوف أوضح له وجهة نظرى
بكل إخلاص .. »

وشعر « دافيد » بعد قراءة رسالتها أنها فتاة ذات وقار واتزان
وأحاساس عميق بالمسئولية نحو والدتها .. شعر أنها أنموذج الفتاة
التي يمتنى أن تعيش فى بيته كزوجة ابن ..

وكتب إليها رسالة أخرى يشكرها ويعرب عن تقديره لوجهة
نظرها ، وعن أمنيته أن يلتقى بها يوما لكى يتبادل معها الحديث
بشأن « تيد » .. ثم قال لها انه فى الوقت نفسه يقدر تماما كل
ما سكتبه لـ « تيد » فى شرح وجهة نظرها .. أما من ناحيته هو ،
فانه يقدر كل التقدير مايقوم به الامبراطورية البريطانية من جهود
لاعداد الهند للحكم الذاتى ، ولتأخذ مكانها اللائق بين أمم العالم
المتحضر ، ثم راح يعرب عن أسفه لبحود الشبان المثقفين وزعمائهم
الذين من بينهم — لاسفه الشديد — عدد من أسدقائه القدامى ..

ولكنه لم يخبرها بأنه شعر بالوحدة والوحشة بعد رحيل ابنه
عن البيت . وكان « تيد » قد رحل فعلا بعد ان انتظر يوما او يومين
— بعد انهيار الامطار الموسمية — ثم انطلق فى طريقه شمالا الى
قرية فاهى . ومن هناك قال فى أول خطاب له انه وجد المنطقية
المحيطة بالقرية غارقة بمياه المطر ، ولكن فاهى كانت على شيء من
الجفاف النسبى لانها تقوم على تل منخفض منبسَط السطح . وقد
عثر على بيت صغير خال اشتراه من صاحبه بمبلغ زهيد ، ولم
يستطع أن يفعل شيئا فى الايام الاولى الا أن يترك الفلاحين المساكين
يأتون اليه ليحملقوا فى وجهه ، وكانهم لا يصدقون نظرانهم . وقال
أنه سعيد لانه تعلم لغتهم اذ مكته ذلك أن يتبادل معهم الحديث ، ثم
الفكاهات .. ويبدو أن الفكاهة الكبرى فى نظره هى قوله لهم انه
جاء اليهم ليتعلم منهم !.. ذلك لان القرية كلها لم تكن أكثر من بضعة
بيوت مصنوعة من الطين ، وبضعة أكواخ لعدد من الصناعات اليدوية
المختلفة ، منها صناعة النسيج اليدوى ، والفخار ، والسجاد ، وطحن
الفلل .. وبدأ له الفلاحون وهم على حافة الموت جوعا ، ولكن
الآمال بدأت تداعب صدورهم أخيرا عندما أنشئت الامطار الرسمية
فى موعدها ..



وكان « تيد » سعيدا حقا .. سعيدا بحريته أخيرا .. سعيدا وهو يعيش يوما بيوم ، فالامطار الموسمية سوف تتوقف في الوقت المناسب ، وسوف تجف البحيرات التي تكوّنت بسببها وتغدو حقولا من الارز والشعير والفول .. وقد كتب لايه يقول انه لن يزور بونا في وقت قريب ، لانه بدأ يتعلم الشيء الكثير ، ولان الاهالي لم يعودوا يخافونه ..

ولم يحاول ان يكتب لـ « آينز » الا بعد مرور اشهر عديدة .. بعد ان اخذت الرياح الرطبة تهب من سفوح جبال هماليا ، وبعد ان استقر به المقام في بيته المصنوع من الطين ، وبعد ان توضحته معالم حياته اليومية الرتيبة ..

لقد كان ينهض في الصباح الباكر ، ليقوم بالتدريس مدة ساعتين لكل من يريد ان يتلقى المعرفة على يديه في قرية فاهي . وبعد ان يعود لتلاميذه الى العمل ، يبدأ هو في أداء واجبه الطبي - وكان ملما بمبادئ الاسعافات والعلاج الاولى - في بيئته . وهنا كان المرضى يأتون اليه من امكان بعيدة ، فكان يعالج الذين يستطيع معالجتهم ، ويرسل الاخرين الى اقرب مستشفى ، ويتعذب من اجل انذين يعودون الى بيوتهم ليموتوا !

وكان يقضى فترة مابعد الظهيرة في التوفيق بين المتخاصمين في القرية ، وتهدئة الخلافات التي تثور بين سكانها .. وهكذا تنقضى فترة الاصيل ، ثم فترة المساء ، في حديث هادئ وتوجيه طيب . وكان هذا كله يجري برتابة ، وكانت نتائجها اقل كثيرا مما كان يحلم به .. الا انه ادرك اخيرا ان الحياة قد استقرت به في القرية ، وان في مقدوره في النهاية ان يكتب الى « آينز » ..

قال لها في رسالته :

« ان الفرصة لم تسنح لك - او لي من قبل - لكي تعرف هؤلاء المعوزين على حقيقتهم .. ولشدا ما اتمنى لو انك كنت معي هنا لتسمعي اقصيص الاحداث التي تقع كل يوم في فاهي .. اقصيص العجيبة الغريبة ، الحزينة الدامية ، الحلوة البريئة .. اقصيص القرية الهندية التي تصور الحياة اليومية كلها في الريف . اؤكد لك انها اكثر اثارة من أية حياة أخرى عرفناها .. انني يا حبيبتي

أرى الان الحياة الانسانية بكل ما فيها من آلام وامل ، وحرمان وحب .. ! »

ولم يكن في نية « آينز » ان ترد عليه ، لولا كلمة في رسالته اثارها وجعلتها تكتب اليه لتقول له بكل حزم ، انها لا تسمح له باى حال من الاحوال ان يقول لها « يا حبيبتي » لانها لم تكن في يوم ما « حبيبته » فضلا عن ذلك فقد وعدت اياه بالزواج .. او كما صرحت في رسالتها قائلة :

« انني لا ادري كيف اسوق لك هذا الخير بأسلوب لا يعضبك .. ولكن لا بد ان اصارحك لانك ان لم تعرف الان ، فسوف تعرف بعد حين .. لقد وعدت ان أتزوج والدك ... »

ولم تكن ثمة اخبار تصل الى فاهي ، ولا شائعات او اقاويل تبلغها من العالم الخارج عن محيطها . ولم يكن ابوه قد لمح له بشيء في رسالته عن هذا الزواج .. ولعله ترك أمر هذه المهمة الدقيقة لـ « آينز » . و لو انه كان مقيما في بونا ، لاستطاع ان يعرف شيئا عن هذه الصداقة التي توطلت عن طريق الرسائل المتبادلة بين « آينز » وابيه . ولكنه لم يكن في بونا ، فلم ير او يسمع شيئا ..

والواقع انه كان في خلال هذه الاشهر سعيدا الى اقصى حدود السعادة .. فتنسى في غمرة سعادته مباح الحب والامه ، ولعله نسى ايضا ان انقطاعه عن الكتابة لـ « آينز » اتاح الفرصة لها لكي تتبادل الرسائل مع ابيه عنه . وقد فهم من رسالته الاخيرة انه هو السبب المباشر في هذه الصداقة التي تمت بالمراسلة بين « آينز » وابيه .. فهو الذي جمع بينهما ، ودفع بهما الى الزواج في النهاية !

وقد كتب اليه ابوه بعد ذلك يقول تبريرا لما حدث :

« .. انني لم افكر يوما في ان أتزوج مرة أخرى بعد أمك ... ولكن شعوري العميق بالعزلة بعد رحيلك دفعني الى توطيد الصداقة بالمراسلة مع « آينز » .. »

ولم يبرح « تيد » قرية فاهي ليحضر حفلة زفاف ابيه على « آينز » في بومباي ، ولا ليودعها وهما يسافران الى الصين ومنها



الى اليابان .. ثم الى نيويورك ..

وصل « دافيد » وزوجته الشابة الى نيويورك في يوم مشرق جميل ، بدت فيه المدينة كاروع ماتكون .. وكانت الرياح تهب من البحر ، والسماء تبدو صافية . وكان « دافيد » يشعر بسعادة غامرة بعد أن ظن يوما أن السعادة لن تعرف الطريق الى قلبه بعد وفاة زوجته . ان هذه الفتاة الانجليزية الحسنة التي استطاع ان يظفر بها زوجة وابنة في وقت واحد ، قد عرفت كيف تملأ قلبه بالهناء ، وبالزهو ، وبالشعور بأنه لم يتجاوز بعد شباب الحياة رغم بلوغه الخمسين من عمره .. الا ان حبه لها كان يختلف عن حبه لـ « اوليفيا » .. كان حبا خاليا من تلك العاطفة الجنسية المشبوبة التي كانت « اوليفيا » تثيرها .. وكان هو - في شبابه - يستمتع بها . ومع حسن حظه أنه لاحظ أن « آنيز » من النوع الهادى الذى يضع الجانب الجنى فى المرتبة الثانية او الثالثة فى الحياة الزوجية !

وكان يشعر - فى اول الامر - انه اخطأ فى حق ابنه « تيد » ، وانه حرمه من حبه الوحيد . ولكن « آنيز » أكدت له انها لم تحب « تيد » الا كصديق ، وانها حاولت كثيرا أن تقنع نفسها بحبه ، ولكنها لم تستطع .. وان زواجها به ماكان ليتم يوما حتى لو اراد أن يعيش معها فى إنجلترا او فى نيويورك ..

ووجد « دافيد » عزاءه اخيرا فى أن « تيد » لن يهتم كثيرا بما حدث ، طالما أنه تنازل عن كل شئ لكى يعيش فى قرية هندية ليحقق الهدف الانسانى الذى يؤمن به .. !

ولم ارات « آنيز » البيت الكبير لاسرة « مكارد » الذى يقع فى قلب مدينة نيويورك وبين ناطحات سحابها ، هفتت فى ابتهاج وهى تتجول من قاعة الى اخرى : « باللوعة .. انه يشبه الى حد كبير قصرا من قصور إنجلترا التاريخية »

وفى احدى قاعات الاستقبال الفاخرة ، وعلى متكا من الحرير الفاخر ، عانق « دافيد » زوجته وقبلها بحرارة وهو يقول :

- اننى ماكنت اظن ان الحياة لا تزال تدخر لى كل هذه السعادة يا حبيبتى ..

وبعد قليل .. قالت له بلطف :

- الان .. اذهب الى ابيك لتراه ، فان المعرصة تقول انه فى ساعاته الاخرة ..

وكان أبوه العجوز راقدا فى فراشه الضخم ، ساكنا فاقد الوعى ، لا يستطيع ان يتعرف على احد .. حتى على ابنه « دافيد » !

ووقف « دافيد » ينظر - بقلب حزين - الى الرجل المحتضر الذى كان اسمه فى يوم ما يزلزل الاسواق المالية فى العالم كله .. وقالت له المعرصة :

- احسنت بالحضور يادكتور « مكارد » .. فان ساعاته فى الحياة اصبحت معدودة

.. هل طلب ان يرانى ؟

- انه لم يطلب رؤية احد لانه مشغول بدفع الموت عنه !

- اذن استدعيني اذا لزم الامر .. ولن اغادر البيت لهذا السبب ..

- حسنا يادكتور « مكارد »

وعاد على اطراف اصابعه الى حيث كانت « آنيز » فى انتظاره باحدى قاعات الاستقبال .. وهناك قال لها :

- اننى لا اريد ان ترى ابنى وهو فى ساعته الاخرة حتى لا ..

فوضعت الكتاب ، الذى كانت تقرا فيه ، على المنضدة ... وقالت :

- شكرا لك يا عزيزى .. ان هذا شعور جميل منك ..

وفى اليوم التالى ، فوجئت المعرصة بالعجوز « مكارد » ينثصب جالسا ، ويحاول أن يهبط من الفراش .. ولكنها اسرعت اليه ، وأرقدته مرة اخرى وهى تقول :

- لا .. لا .. يا مستر « مكارد » .. انك تؤذى نفسك بهذا المجهود ..

واسرع « دافيد مكارد » حين سمع الجلبة فى غرفة ابيه .. فلما دخلها قال متسائلا : « ماذا حدث ؟ ! »

- لقد استرد وعيه فجأة ، و اراد ان يغادر الفراش .. كان العجوز فى تلك اللحظة يلتفت حوله ، ثم يقول والحيثية

الكبيرة تهتز: « أين أوليفيا؟ »
فقال له « دافيد » بهدوء: « لقد ماتت « أوليفيا » يا أبى منذ
عهد بعيد »

— أهي ماتت أيضا؟

ثم راح يردد اسم زوجته « ليلا » قائلا:

— ليلا .. ليلا .. اننى آت اليك يا عزيزتى ..

ثم مال برأسه جانبا ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ..

وقالت « آنيز » بعد أن تمت اجراءات الدفن:

— اننى آتئنى لو استطعت ان أعيش هنا دائما يا « دافيد » ..

فقال لها دافيد:

— اذن سنفعل هذا يوما .. لان لدى بعض الاعمال التى ينبغى أن

انجزها قبل أن استقر هنا ..

فأسرعت تقول:

— طبعاً .. طبعاً .. لقد اعربت فقط عن أمنية من أمانى .. ولكن

أعمالك أهم جدا ، من أمانى فتاة مدللة مثلى .. ولست أشك فى انى

سأكون سعيدة معك فى الهند أو هنا .. !

وطوقها بذراعيه فى حنان وقال:

— ان سعادتك هى من أهم اهدافى فى الحياة الان ..

وكان « دافيد » فى الواقع سعيدا رغم اجماع اطباء بأن زوجته

« آنيز » عاقرة تماما ، ولا ينتظر بحال أن تنجب له ابناء .. والواقع

أن هذا الثرثار وضع حدا لشعوره بالقلق ، فقد كان أشد ما يخشاه

أن تنجب له « آنيز » عددا من الإبناء والبنات وهو فى هذه السن ،

فينشغل بهم عن أعماله الكثيرة التى تنتظر الإنجاز فى الهند ..

ولم تفضب هى أو تحزن حين علمت هذه الحقيقة .. وهكذا

انبتت مرة أخرى أنها فتاة واقعية رزينة ، لا تحزن أو تفضب لحرمانها

من شيء شاءت الأقدار أن ترجمها منه ..

وهكذا أصبح « تيد » الوارث الوحيد للملايين « آل ماكارد » بعد

أبيه .. فهل سيأتى اليوم الذى يتزوج فيه ، وينجب وريثة لهذه

الملايين ؟

الفصل التاسع

زوجة بالاكراه

وفى قرية فاهى ، أخذت الايام تمر رتيبة على « تيد » .. وكأما

مرت ازداد شعورا بالاستقرار ، لا سيما بعد أن لمس الاثر الواضح

لجهوده وخدماته فى القرية منذ أن أقام فيها .. لقد علم الفلاحين

كيف يحفرون المصارف التى تمتص المياه الزائدة فى موسم الأمطار .

واستدعى من بومباى اخصائيا فى حفر الابار الارتوازية ، فحفر

فى القرية بضعة آبار ، وعلم بعض القرويين كيفية حفرها ، وهكذا

قل اعتماد المزارعين على الأمطار وحدها ، وازدهرت الزراعة ،

وارتفع مستوى معيشة الأهالى .. وتسامع سكان القرى المجاورة بما

حدث فى قرية فاهى ، فآخذوا يتوافدون ليروا ويتعلموا . وزاره

« داريا » ذات يوم حيث أقيم احتفال ضخم ، وقف فيه « داريا »

يحدث السكان بأمال زعماء البلاد فى الاستقلال الكامل ، ويشرح لهم

معنى الوطنية والقومية ، ويؤكد لهم أن الوطنية ليست كلاما وإنما هى

عمل وانتاج وجهد متواصل ..

وبعد رحيل « داريا » بيوم أو يومين ، تلقى « تيد » خطابا حملته

أحد السعاة الذين يوزعون الرسائل بين القرى جريا على الاقدام .

وكان المظروف مربع الشكل ، والورق من النوع الاحمر الرخيص ،

يحمل اسم « آل فوردام » فى بلدة بونا . ولم يكن العنوان والاسم

مكتوبين بخط المستر « فوردام » ، ولم يكن من المعقول أيضا أن

تكتب له المسز « فوردام » رسالة على ورق احمر . فلما فُض

المظروف وجد رسالة من ورقتين مطويتين مليئتين بعبارات مكتوبة

بخط فتاة وبمعداد احمر اللون . وكان الاسم المدللة به الرسالة هو

اسم « روثى فوردام »

وشعر « تيد » بالدهشة والارتباك ، وهو يقرأ قولها له انها كتبت اليه دون أن تخبر وانديها ، وان الحافظ لكاتبها هو شعورها بالوحدة والعزلة وحرمانها من صديقات أو رفيعات في مثل سنها ، وانها وقد بلغت التاسعة عشرة من عمرها ممنوعة - بأمر والديها - من مصادقة أى شاب انجليزى فى البلدة خشية أن تلوك الالسة سيرتها !

وكان الواضح ان « روثى » تريد ان تكتب او ان ترسل أى شاب . . ومن ثم وقع اختيارها على « تيد » دون أن تدرى على وجه التحديد لماذا اختارته . ولكنه نداء الشباب ، وحرارة العاطفة فى مثل هذه السن !

ولم يكن هو قد كتب الى « آنيز » غير خطاب واحد ، اعرب فيه عن تهنيئته لها بزواجها من ابيه . ولكنه فى قرارة نفسه كان قد قرر الا يعود الى بونا طالما هى مقيمة فيها . وكان ابوه قد اخبره انه عاد الى بونا مع عروسه بعد ان امضى ثلاثة اشهر فى نيويورك ، وانه عين مديرا مساعدا له ليعاونه على ادارة المؤسسة الأمريكية الضخمة ، ثم ليتولى ادارتها نهائيا بعد ان يعود هو الى نيويورك للاقامة فيها بصفة دائمة

وحاول « تيد » جاعدا أن ينتزع ذكرى حبه السريع لـ « آنيز » بعد ان اصبحت زوجة لايه . ولكن قراءته أو سماعه لاسمها كان يثير فى قلبه الما حدا ! اما « روثى » فقد كتبت اليه فى رسالتها تقول : « . . لشد ما احسدك على حياتك التى تجيهاها فى مكانك البعيد المنعزل عن شرور الدنيا . . اننى اتمنى لو استطعت ان اعيش فى احدى القرى ايضا . فانا أحب الطعام الهندى ، واحب الاطفال الهنود الصغار . وابذل جهدى فى تعليم امهاتهم وسائل التربية الحديثة . ولهذا فانى اقرأ الكثير من الكتب الخاصة بتربية الاطفال »

وهكذا بدأت - بالمراسلة - صداقة وطيدة بينه وبين « روثى » ، وقد ارسلت اليه ذات مرة صورة لها تمثلها وهى واقفة فى ضوء الشمس وقد بدا ذراعها عاريين ، وشعرها متطايرا فى الهواء ، ولكنها اخبرته انها قصرت شعرها بسبب حرارة الجو ، وان امها انتبتها بشدة لهذا السبب . ثم قالت له فى احدى الرسائل : « . . ان اى تحاول دائما أن تقرأ رسائلنا الى . . ولكننى لا اتيح لها هذه

انفرصة . وقد عرفت أن الرسائل التى اتلقاها ، آتية منك . . لانه ليس هناك من يرسلنى سوى زميلة لى فى اوهيو . ولكننى حريصة على الا ادعها تقرأ هذه الرسائل لان من حتى ان يكون لى جانب من حياتى لا يطلع عليه أحد . . »

وقد اخبرته انها تقوم بالتدريس فى المدرسة الابتدائية . . وانها لا تحب التدريس للبنات اليافعات ، وتمنى أن تستمر فى تدريس الاطفال الذين تحبهم . .

ثم سألتها فى احدى رسائلها : « الا تفكر فى ان تاتى لتقضى معنا اعياد راس السنة فى بونا ؟ »

فرد عليها فى رسالة يقول : « لا . . لقد اصبحت فاهى همى موطنى ومستقر حياتى . . »

نعم . . اصبحت فاهى موطنه . . موطن روحه وجسمه . لقد كان يعرف ان اباه يعتقد انه سوف يعود يوما الى بونا ، ولكنه ان يعود . . ن يعود الى بونا او الى أى مكان آخر فى العالم . حسبه ان يعيش هنا فى قلب ملايين الهنود . . ولماذا الهنود فقط . . ؟ فى قلب ملايين البشر فى أنحاء العالم كله . ان هؤلاء القرويين يرمزون للعابلية العظمى من بنى الانسان فى مختلف أنحاء العالم . . وانه - فى اعماق نفسه - يؤمن بأنه لا يجوز لانسان ان ينعم بمباهج الحياة الحقيقية حتى يشبع كل جانح منهم ، وحتى يشفى كل مريض ، وحتى يتعلم كل جاهل . .

وبدا - مع مرور الايام والشهور - يشعر بالراحة والبهجة كلما قرأ رسالة « روثى » او كلما كتب رسالة مطولة اليها . وكان يستمتع بهذه الكتابة لانها لم تكن تطالبه بشئ معين ، او ترهقه بالكتابة عن أشياء خاصة ، وانما تقول له فى رسائلها انها تجد متعة فى كل ما يكتبه لها ، ولا سيما براعته فى ذكر تفاصيل بعض الاحداث والطرائف . وكان « داريا » قد حدثه عن استمتاعه بزمامة الحشرات له فى غرفته بالسجن ، وانه كثيرا ما كان يجد فى هذه الحشرات لونا من الترفيه الذى يخفف عنه قسوة الشعور بالوحدة . وقد ادرك « تيد » هذه الحقيقة حين بدأ يالف السجان الذى استقرت فى شقوق جدران بيته ، وحين عرف انها صديقات لطيفات يفتنهن الكبير

من الحشرات الصغيرة المؤذية أو الزعجة ..

وقد حدث « روثي » في رسالة عن السحالي ، وعن العقارب ، والعناكب ، والحشرات السامة التي تكثر في كل مكان بالقرية ، كثرة النور في الغابة . ولكن الحيوانات الطريفة حقا هي القردة والنسائيس انتي تتسلل الى القرية بين الحين والآخر لتسرق بعض الطعام . ثم أخذ في رسالته التالية يحدثنا عن النساسة الصغيرة التي سقطت من فوق الشجرة فانكسرت ساقتها .. ولما عالجها وشفيت ، تعلمت به الى حد انها أصبحت ترفض الطعام او الشراب الا اذا قدمها هو اليها بنفسه !

وقال لها في رسالة أخرى : « وحتى في المساء - وفي اثليل الطويل - لا يرفرف السكون التام على القرية .. فهناك اصوات الحيوانات في الغابة .. وهناك عويل الاطفال المرضى .. ولكننا حين نفترق - في نهاية اليوم - تكون السكينة قد ملأت ارواحنا جميعا »

واستمرت هذه الرسائل متبادلة بينهما نحو عام . واخيرا وردت الرسالة التي كان يتوقع ان يسلمها يوما . وقد ادرك فحواها بمجرد ان قرأ سطورها الاولى : « .. دعني آتي الى القرية لاعيش معك .. اسمح لي ان اكون زوجة لك . انني لن اطالب بشيء ، بل ولن اطلب منك ان تحبني ، ويكفي اني احبك ! »

ما هو الزواج ؟ .. انه لا يعرف ما هو على وجه التحديد .. انه يشعر برغبات الجسد تفور بين الحين والآخر ولكنه كان دائما ينجح في كبتها عن طريق العبادة والصلاة والاستغراق في العمل .. ولكنه كان يقضي بعض الليالي ساهرا ، مؤرقا من فرط الشعور بالرغبة الجنسية المستمرة . وفي مثل هذه الليالي كان ينهض من فراشه ، ويضئ المصباح ، وبقرا . وهنا كان الاهالي يتسللون الى حديقة البيت الصغيرة ليطمئنوا عليه خشية ان يكون مريضا ، أو لعل السبب انهم مرضى أو مؤرقين مثله

ولم تكن الهند - كما عرف منذ امد بعيد - بالمكان الذي يستطيع الانسان أن ينام فيه ساعات طويلة في الليل .. لان الحرارة الشديدة ، ودبيب الحشرات ، وعويل الاطفال المرضى أو الجائعين . تؤرق النائم

الا اذا كان مجهدا جدا

وكان هو - في فاهي - موضع اهتمام الجميع ، وكان الجميع يعتمدون عليه في كل شيء تقريبا .. فلماذا يكون رأيهم فيه اذا هو تزوج ؟ .. انه لا يدري ، وان احدا لم يحاول ان يفتاحه في هذا الامر ، لأنهم كانوا ينظرون اليه نظرهم الى قديس !

ولم يكن هو بدوره يستطيع ان يتصور وجود أية زوجة يضاء في فاهي ، الا « روثي » .. ولكنه لم يكن يحبها هذا الحب الذي يجعله يمتنى الزواج منها . انه يعيل اليها حقا ، ولا يجد أي سبب يدعو له للنفور منها .. على أن الميل او عدم الثفور شيء ، والحب شيء آخر . ومع ذلك فهو لا يريد ان يحب « روثي » أو غيرها ، لانه يعلم ان الحب سوف يشغل جانبا كبيرا من تفكيره وعواطفه التي كرسها لرسالته الانسانية في هذه القرية

واستبدت به الحيرة ، فلم يعرف كيف يرد على رسالة « روثي » ! هل يعتذر اليها ويجرح كبرياءها الانثوي ، ويحرم نفسه حتى من رسائلها التي تعتبر كالقطرات الندية في حياته الجافة .. أم يلف ويدور في الرد ، وينتهي الى القول بان الوقت لم يحن لكي يتزوج ! وظل في حيرته حتى قرأ في العهد القديم انشودة الملك سليمان لاحدى زوجاته الحسان :

« تعالي ، ايها الحبيبة ، لنمضي الى الحقول ..
« ولنسكن في القرى .. »

وفي ديوان الحكيم الهندي « سانهارا كاريا » قرأ ما يلي :

« لأنه عندما يصبح الواحد اثنين ..

« وعندما يصبح الاثنان واحدا ..

« فان البحث عن الحقيقة لا يضع سدى .. »

وراح يبحث عن الحقيقة .. عن البرهان الذي يطمئن اليه قلبه .. وقد وجد هذا البرهان اخيرا في هذه الحقيقة الواضحة الصريحة .. ان رغبات الجسد تزداد عنفا يوما بعد يوم .. وهو ليس بقديس ، وليس بقادر على ان يكبت هذه الرغبات بصفة دائمة .. وان حياته في هذه القرية تستلزم وجود زوجة بجانبه ، وليس هناك زوجة يضاء تقبل الحياة معه الا اذا كانت « روثي »

وعلى هذا ، ارسل اليها الرد التالي : « اذا كنت تشينيني

يا « روثى » كما انا فلهم نتزوج في اقرب فرصة .. »

وقالت « روثى » لامها ذات صباح : « انتى و « تيد » قد نتزوج في اية لحظة »

ولكن امها قالت لها بحزم : « اعتقد انه لا ينبغي ان تتزوجى

« تيد » قبل ان يعود والده من رحلته الاخيرة الى بومباى »

فردت « روثى » بحرارة قائلة : « ولماذا ننتظر ؟ .. انتى واثقة

بان الدكتور « ماكارد » لا يجب ان يرى « تيد » زوجا لى ! »

وهنا قالت الام بحزم : « فى هذه الحالة ينبغي ان ننتظر عودته »

— لماذا ؟ .. الا يحسن ان تنتهى من هذا الامر قبل حضوره حتى

لا نترك له الفرصة لرفض ؟ !

ولما عرض الامر على الوالد — المستر « فوردام » — وقف بجانب

ابنته ، لا لانه كان يخشى غضب الدكتور « ماكارد » او رفضه ، وانما

لاستنكاره ان تكون ابنته غير جدية بالزواج من اى شاب ، حتى ولو

كان من عائلة « ماكارد » !

وقد قال فى هذا الشأن : « انا اناس عاديون .. ولكننا مع ذلك

لا نقل شأننا عن اية اسرة ، ولو كانت اسرة « ماكارد » !

وهكذا تقرر الامر ، فكتبت « روثى » الى « تيد » تقول له انها

على استعداد لان تتزوجه — اذا شاء — فى اى وقت ، وانها تفضل

ان تقضى معه عيد الميلاد فى فاهى — كزوجة مطيعة له — وان حفلة

الزواج ستكون صغيرة لانها لن تدعو الا عددا قليلا من المعارف

والاصدقاء ، البيض والهنود .. ولكن اذا اراد ان ينتظر عودة والده

وزوجته من بومباى — بعد شهر — فانها على استعداد لان تنتظر ايضا

وان كانت تفضل ان يتم الزواج فى اسرع وقت !

استلم « تيد » هذه الرسالة بعد يوم عانى فيه من الجهد الشىء

الكثير . وهن ثم اخذت الشكوك تناوشه ، وقد احس فجأة انه

تسرع بالموافقة على الزواج . ولكن الزمام كان اقلت من يده ، ولم

يعد هناك اى مبرر لتراجعه . على انه لم يلبث ان راح يفكر بهدوء

وسكينة ، ثم قرر اخيرا انه لم يخطئ ، وان الزواج القائم على الحب

المتبادل قد يصلح فى اى بلد آخر .. اما فى الهند ، وفى هذه القرية

بالذات ، فليس هناك غير زوجة واحدة تصلح له .. وهى « روثى »
.. الفتاة الحلوة ، البريئة ذات المزاج المعتدل ، والطبيعة الهادئة ..

ظلت هذه الافكار تراوده يضع ساعات فى سكون الليل ، بينما كانت

حرارة الجو تجثم على صدره كأنها وحش ملتهب . واخيرا نام وهو

مطمئن الى ان « روثى » هى الزوجة التى اختارها له القدر ، شاء

او لم يشأ !

وادرك — اثناء حفلة عقد الزواج بالكنيسة — ان اقتدر لم يقس

عليه حين اختار له « روثى » زوجة .. بل لعله احسن اليه — من

حيث لا يدرى — احسانا يرى انه غير جدير به ، فقد كانت الفتاة

تبدو — وهى واقفة بجانبه امام المحراب — فى ثوب الزفاف ، انموذجا

رائعا للجمال العذب المثير .. وعينها حاول ان يجد فيها عيبا ، وهو

ينظر الى شعرها الذهبى الناعم ، والى وجهها المستدير المشرب

بالحمرة ، والى شفطىها الصغيرتين المتلثتين الحمراوين والى جسمها

اللدن الممتلىء المضىء من فرط صفاء البشرة ..

وكان جميع المدعوين الى عقد القران من سكان بونا الهنود والبيض

انذين عرفهم فى طفولته .. وقد شعر من ثم بالرضى والقبلة وهو

يستعيد فى لحظات خاطفة ايام الطفولة العذبة ، حتى افاق من ذكرياته

على صوت المستر « فوردام » الذى كان يقوم بمراسم الزواج ، وهو

يقول :

— « تيدودور ماكارد .. هل تقبل هذه العذراء زوجة لك ؟

وقال « تيد » فى مرح وتفاؤل واستبشار : « نعم »

وعاد الرجل يقول لابنته هذه المرة : « وانت يا « روثى » هل

تقبلين هذا الرجل زوجا لك ؟ »

وسرعان ماوردت « روثى » قائلة : « نعم يا ابنى .. »

وقمت مراسم الزواج ، وخرج الجميع من الكنيسة الى المركبة

التي كانت فى انتظار العروسين .. وودعت « روثى » والدها

وصديقاتها ، وصافح « تيد » المدعوين وتقبل تهنيتهم . ثم استدارت

« روثى » اليه قائلة : « انتى تحت امرك الاين يا تيد »

www.dvd4arab.com



وركب الاثنان المركبة التي انطلقت بهما في الطريق الى محطة
السكة الحديدية . ووقف المسر والمسر « فوردام » يشيعانها وقد
انحدرت الدموع من عيونهما في صمت ..

وفيما كان القطار ينطلق نحو محطة السكة الحديدية التي تتبعها
قرية فاهي ، قال « تيد » لزوجته بعد أن تناولوا طعام الغداء :
- « روئي » .. اننى أريد أن أقول لك شيئا ..
فقال « روئي » وهي تفتح عينها وتشاءب :
- قل ما تشاء .. اننى اشعر بالخجل لاننى نمت . ولكنى معتادة
على النوم بعد الظهر كل يوم ..
وكانا جالسين في مقصورة خاصة بالدرجة الاولى ، ومن ثم قال
« تيد » وهو مطمئن الى أن أحدا لن يسمعهما :
- اننا لم نجد الوقت الكافي لان نتبادل الحديث عن بعض التفاصيل
ولكننى اعتقد ان لدينا الان الوقت الكافي لان يقول كل منا للاخر
ما يريد ..

وكان في قرارة نفسه قد قرر ألا يتعجل في استعمال حقه كزوج ..
بل انه كان يروج الا يقترب منها الا عندما يجد نفسه عاجزا تماما
عن كبت جماح ورغباته البدنية . وبهذا وحده يشعر بأنه لم يتخل عن
واجباته ، ولم يخن رسالته الانسانية التي وقف عليها حياته !
أما هي ، فقد اخطأت تماما الا يهدف من تردده في الحديث ، فقالت :
- أخبرنى بكل ما تريد .. لا داعى للتحرج ، فاننى اعرف كل شئ ،
واعتقد أنه لا توجد فتاة تنشأ في الهند ثم تجهل كل أسرار الحياة
الزوجية ..

وضحكت فجأة وقالت :

- هل تعرف اننى كنت محبوبة جدا من السيدات الهنديات
المحجبات فى البيوت والقصور ، وأننى كنت من ثم موضع أسرارهن ..
وهكذا عرفت من أسرار الحياة الزوجية ما تتجملد له دماء أية فتاة فى
أمريكا ؟ !

زاعجته صراحتها ، فتنهت فى ارتياح وقال :

- لسوف اصارحك بما يدور فى نفسى .. ومع ذلك احب ان تفهمى

فى الوقت ذاته ، لماذا اتخذت هذا القرار ..

فحملت فيه بعينها الواسعتين وقالت : « قرار ؟ ! »

فقال وهو يحاول أن يتقلب على خجله :

- اننى كما اعتقد شاب طبيعى من .. من الناحية ..

- اننى افهم ماذا تقصد ..

- شكرا .. اننى أفضل أن .. أنتظر حتى .. حتى تمتزج الرغبة
الجسدية ، بالسمو الروحي .. والواقع اننى لا اعرف كيف أعبر عن
افكارى ، ولكننى أستطيع أن أقول اننا لا ينبغى أن نترك الرغبات
الجسدية وحدها تسيطر علينا ..

ففكرت « روئي » برهة ، ثم قالت :

- ولكننى لا اشعر - فى هذه اللحظة - الا برغبة واحدة .. وهى
رغبة الزوجة فى زوجها .. ومادامت زوجين شرعيين ، فانى اعتقد
انه لا ضرر فى مثل هذه الرغبة ، ولا خطيئة .. بل ان الله
يباركها ...

فقال متلعثما : « ولكن .. الا يحسن أن ننتظر حتى يسيطر
الجانب الروحي على الجانب المادى فى جسدينا ؟ ! »

فهزت كتفها وقالت : « لا بأس من الانتظار اذا شئت ، ولكننى
أرجو الا يطول امره ، لاننى أريد أن أكون اما فى أسرع وقت يا « تيد »
.. اننى أتمنى أن يكون لى عشرة أبناء وبنات ! »

وحملق فى وجهها برهة ، وهو يعجب كيف نسى هذه الحقيقة .
ويبدو أن حياته التى عاشها بدون أم جعلته يجهل معنى الامومة ؟
ولا يذكر فقط الا نفسه !

أما « روئي » فانها لم تكن تفكر فى نفسها ، وانما فى اليوم الذى
تصبح فيها اما لأول طفل . اذن فقد عرف اخيرا معنى الزواج ..
عرف هدف الزواج .. عرف لماذا يتزوج الناس . وابتسم ساخرا
من نفسه حين اراد أن يجعل من هذه المسألة البسيطة ، شيئا
مقيدا بين الروح والجسد !

وضحك « تيد » فجأة .. ان « روئي » على حق ، وهو على

خطا ، وانه من ثم لا يرى أى سبب يبرر حرمانها من أن تقدموا أما فى
أقرب وقت ممكن .. وقالت له « روئي » : « لماذا تضحك ؟ »



- تعالى واجلسى بجانبى ..
وانتقلت الى جانبه .. وشكر الله في نفسه لوجودهما في مقصورة
خاصة بهما ، مغلقة الباب من الداخل ..
ونظر الى وجهها .. ثم الى صدرها .. ثم عاد ورفع عينيه الى
عينيهما ، فرأى فيهما النداء الحار .. الصامت ..
وقالت له : « هل تعرف انك لم تقبلنى حتى الان ! »
فابتسم في رفق وقال : « نعم .. اعرف »
ثم اخذها بين ذراعيه ..

الفصل العاشر

الحب المحرم

قالت روئى : « ليفى .. اننى لا استطيع بأى حال ان اخبر
والدك ! »

ونظرت « روئى » الى الفتاة الجميلة الرشيق القوام الذهبية
الشعر ، التى كانت اول ابنة انجبتها من « تيد » ، ثم انجبت بعدها
ابنة اخرى وثلاثة صبيان . ورات في تلك اللحظات انه كان ينبغي
عليها وعلى زوجها « تيد » ان يرسلوا ابنتهما الكبرى « ليفى » هذه
الى المدرسة الثانوية بأوهيو ، بأمريكا ، منذ سنوات ، الا انهما
تركاها تبقى معهم ومع اختها الصغرى « ساره » ، بينما ارسلوا
الاولاد الثلاثة الى أمريكا ليتعلموا في مدرسة داخلية . وكانت
« ليفى » قد توسلت اليهما ان تبقى لانها لا تعرف احدا في
أمريكا ..

ولما قالت هذا لابيها رد عليها قائلا :

- انك هناك لن تلبى حتى تتعرفى بأصدقاء كثيرين ..

وهنا ردت عليه قائلة :

- ولكن اصدقائى هنا جاهزون يا أبى !

وعادت « روئى » تبرى - وهى تنظر الى ابنتها « ليفى » - أنه
كان ينبغي ارسال هذه الابنة الكبرى الى أمريكا ، لان سن العاشرة
هى السن التى يمكن فيها السيطرة على الطفل او الطفلة .. أما
« ليفى » فقد بلغت عندئذ السادسة عشرة . وكانا قد ارسلها في
العام الماضى الى مدرسة داخلية انجليزية في بومباي .. وهماهى ذى
قد عادت مرة اخرى الى فاهى لتقضى العطلة المدرسية الطويلة ..



وفي خلال العام الاخير ، بدا لهما انها تفيرت بشكل ملحوظ ، او لعلهما لم يلحظا - من قبل - هذا التغيير الكبير الذي يبدو على الفتيات المراهقات بسرعة مذهلة في خلال عام واحد . ولكن الاهم من هذا هو ان الفتيات عادة ينضجن بسرعة في الاجواء الحارة . وهكذا تحولت « ليفى » في هذا العام الاخير الى امرأة شابة مكتملة الانوثة ، بارزة الصدر ، نحيلة الخصر ، او كما يقول الشاعر « هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة ! »

وردت « ليفى » على امها قائلة : « انتى لست خائفة من ابى »

وكانت « ليفى » كما بدت عندئذ فتاة هادئة ، ولكن هدوءها كان يخفى ذلك الصراع الهائل الدائر في اعماق نفسها بين انوثتها والجو المحيط بها . وكانت قد شبت تدن بنظرية امها في ان الناس جميعا سواء ، لا فرق بين هندي والامريكى ، او صيني وانجليزى . وكانت امها تؤمن بهذه النظرية بدافع من البساطة ، وهربا من الجدل والمناقشات ، وكان ابوها يؤمن بهذه النظرية ايضا . . . ولكن الجانب الدينى كان هو الحافز له على هذا الايمان ، ولهذا كان حريصا دائما على ان يؤكد للهنود ان ديانتهم لا تعترف بالفوارق العنصرية . . . ومعنى هذا ان ابها كان يؤمن بالمساواة بين الناس بدافع الحرص الدينى ، ولهذا كانت « ليفى » ترى ان ايمان امها هو الاقوى لانه تابع من الاعماق الطبيعية للنفس البشرية

ولهذا ايضا كانت « ليفى » ترى ان في مقدورها الاعتماد على امها لتقف بجانبها في محنتها الغرامية . . . ولكن ها هي ذى امها ايضا تغذلها ، لانها - اى الام - تشعر في اعماق نفسها بالفزع مما حدث . . . لقد احبت ابنتها الحبيبة الشاب الهندى « جاتان » . . . و « ليفى » لا تدرى كيف حدث هذا ، بل ولا تجد له تفسيراً . . . انها تعرف « جاتان » منذ ثلاثة اعوام على الاقل ، ولم يخطر ببالها ان تحبه يوم رأتها اول مرة . لقد جاء من بونا بعد ان نال ارقى الشهادات في الطب والجراحة من جامعة « ماكارد » . وكان ابوها « تيد » قد دعاه للاقامة في فاهى ، للإشراف على عيادة طبية ومستشفى محلى صغير . وكانت قد سمعت ابها يمتدحه ويعلم انه شاب يمكن الاعتماد عليه . . . شاب يمكن ان يحل محله يوما في الاشراف على

الوحدة الاجتماعية الضخمة التى اسسها « تيد » في خلال السبعة عشر عاما التى عاشها في فاهى . . . وقد كان لهذه الوحدة الاجتماعية، وما اثمرته من رفع مستوى سكان فاهى وماحولها ، اثره الضخم في المنطقة كلها ، بل في معظم أنحاء الهند منذ ان نالت استقلالها الذاتى ، وقد بلغ من قوة هذا الاثر ان الحكومة الهندية الجديدة بدأت تناقش مشروعا ضخما لانشاء مثل هذه الوحدات المركزية في جميع انحاء البلاد . . . هكذا بلغ الاثر الكبير الذى تركه ابوها في بلاد ضخمة مثل الهند . والواقع ان فاهى اصحت قرية نموذجية جميلة رائعة . . . وكانت « ليفى » لا تمل سماع الناس وهم يقارنون بين قرية فاهى كما كانت قبل اقامة ابها ، وبينها الان . . . وانها لتحبها من صميم قلبها . . . ولكن حبها لهذه القرية شيء ، ووقوعها هي في حب شاب هندي شيء آخر !

ولكن هذا - على اية حال - ماحدث . . . فعندما عادت من المدرسة منذ شهر لتقضى عطلة الصيف الطويلة ، اذ بها تقع في غرام « جاتان » منذ اليوم الاول . حقا انها راته من قبل مرات عديدة . . . مئات المرات . . . ولكن رؤيتها له هذه المرة كانت مختلفة ، وهى لا تدرى لماذا . فقد اعتادت ان تذهب - عند عودتها الى القرية لقضاء العطلة - الى اصدقائها وصديقاتها لتحبيهم . وهكذا اسرعت تعدو الى عيادة « جاتان » ذات صباح مشرق لتحبى المرستين الهنديتين، وتحبى « جاتان » ايضا بطبيعة الحال . ووقفت متمسرة في مكانها بمدخل العيادة تنظر اليه - وكان بمفرده - وهو يرتدى معظم العمل الابيض . ونظر هو اليها ، وكانها يرى امامه ملاكا هبط عليه من السماء - او هذا ماشعرت به على الاقل - لانها لم تر احدا من قبل ينظر اليها وفي عينيه كل هذه الفرحة والتقدير والحب واحسنت في تلك اللحظة بالماء تجرى حارة في جميع اعضاء جسمها . . .

وقال لها بحرارة :

« ليفى » . . . لقد كبرت فجأة . . . فما اروع جمالك ؟

وتقدم اليها ، واخذ يديها بين يديه . . . ونظر في وجهها طويلا بحب وحنان ، بينما قالت هي في تلعلم : « انتى كما انتى »

وترك يديها فجأة حين سمع وقع اقدام المرستين .. وانتهت
للك اللحظة الساحرة ، ولكنها تركت أثرها الخالد في قلوبهما .
وأخذت تجمع بينهما - على أفراد في معظم الاحيان - كل يوم
تقريبا . لقد وجدت « ليفى » نفسها عاجزة عن الابتعاد عنه ، وهكذا
أخذت تلتمس الاعذار المختلفة لتذهب الى العيادة ، ثم قالت انها
تريد ان تساعد في عمله وتتمرن على التمريض .. وكانت تعرف
انها لا تريد هذا الانتظار بجانبه طيلة اليوم . وكان طبيعيا بعد ذلك
ان تبقى الى ساعة متأخرة بعد الغروب لترتب العيادة وتفسل
الاولية . ولكنها لم تكن تتأخر الا من اجله ايضا .. ولم يمر غير
اسبوعين وبضعة ايام حتى امكنهما ان ينفردا لحظات كل يوم
تقريبا . وكان « جاتان » يسرع بارسالها الى البيت بعد ان يتبادل
معها قبلات سريعة خاطفة ، وذلك خوفا من انتشار الشائعات عنهما .
وقد شعر بالاضطراب الشديد في اليوم السابق فقط ، لانه ظن ان
الكناس وآهما يتبادلان القبلات .. !

وقد قالت له حين اعرب لها عن مخاوفه :

- اننى لا اهتم بما يقوله الناس مادمننا سنتزوج يا « جاتان » ..
اليس كذلك ؟ .. الا يتزوج الناس عندما يحب بعضهم بعضا ؟

وازدادت سمات الاضطراب الشديد على وجهه الاسمر الوسيم ،
كما بدا الحزن واضحا في عينيه وهو يقول :

- لا اظن ان الزواج ممكن بيننا يا « ليفى » !

فقالت ليفى باصرار :

- بل ممكن .. ممكن .. ان ابى وامى ليسا كبقية الجنس
الايض ..

فرد بهدوئه المعتاد :

- نعم .. انهما يختلفان حقا .. ولكن هل يقبلان زواجك بى ؟
.. لا اظن ..

فصاحت قائلة :

- فى هذه الحالة لن اصدق انهما خادمان صادقان للانسانية
فقال لها متوسلا بأرق صوت :

- لا .. لا .. أرجوك .. لا تقولى هذا .. انت تعرفين انهما

طيبان .. ولكن ..

- ولكن ماذا ؟ ..

- ان من الصعب جدا ان يبلغ الانسان ذروة الطيبة والتسامح
والايمان الدينى

ولكنها لم تفهم شيئا مما اراد ان يقول ، وانما قالت ببساطة :

- المهم هل تقبل انت ان تتزوجنى اذا لم يعارضا هما ؟

- انت تعرفين يا « ليفى » ان هذه اعلى امنية لى فى الحياة ..

- اذن سوف اجعلهما يقبلان ..

ولكن هاهى ذى جالسة مع امها التى كانت مشغولة بفحص الملابس
المفسولة ورتق الاجزاء الممزقة فيها - وكانت - اى ليفى - تكره
هذا العمل ، ولكن الخادما الهنديات لم يكن يحسن الخياطة او
الرتق ، لان الواحدة منهن اعتادت ان ترتدى السارى الذى لم يكن
يحتاج لاكثر من غزرات قليلة ، كما ان الاطفال عادة لم يكونوا
يرتدون شيئا غير مطارف تلف على اجسادهم الصغيرة اذا كان الليل
باردا . ومع ذلك فقد رحبت بانفرادها مع امها فى هذا الصباح ،
لانها ترى ان امها يجب ان تعرف اولاً ، ثم تحدث اباه بالامر ثانياً ،
وان هناك خطة ينبغي ان ترسم بحذر وبراعة !

وعادت من ثم تقول لامها :

- اعتقد ان من واجب ابى ان يرحب بزواجى من « جاتان » ،

لانه يقول دائما ان « جاتان » شاب مدهش .. !

- انه مدهش فعلا .. ولكن هذا لا يبرر موافقة ابيك على زواجك

به .. !

وراحت ترنو الى ابنتها فى حزن وحريرة .. وكانت « ليفى » قد
وثبت واقفة ، واخذت تدور فى الغرفة حافية القدمين ، ممطولة

الشفقين ، تمغمم بكلمات ممضوعة لا معنى لها ..

وقالت الام اخيرا :

- اجلسى يا « ليفى » ولا تمطى شفتيك فى وجهى . ساعدينى فى

اطالة ثوب « ساره » اختك .. انها تكبر بسرعة ، اما انا فسوف

أرتق غطاء هذه الوسادة ..

وعادت « ليفى » الى الجلوس ، وبدأت تفك طرف ثوب الخياطة

« ساره » لتظيله . وكانت تجلس مع امها في غرفة من البيت القديم الذى اشتراه ابوها يوم جاء الى القرية لأول مرة . ولكن البيت لم يظل كما كان ، مكونا من غرفتين وصالة .. وانما ظل « تيد » يضيف اليه غرفات بعد غرفات حتى اصبح عددها عسرا .. اما الحديقة المحيطة به ، فقد صارت متعة للناظرين ..

وكانت « ليفى » تحب الحياة فى القرية ؟ ومن ثم نشأت كاية فتاة هندية .. تسير بنفس الرشاقة ، وتحدث نفس اللغة بطلاقة ، وتهوى الطعام الهندى وانه طعامها الوطنى .. !

وكانت القرية نفسها قد تغيرت بحيث لا يكاد احد يصدق انها نفس القرية التى جاء اليها « تيد » للاقامة فيها منذ سبعة عشر او ثمانية عشر عاما .. لقد شقت حولها المصارف للتخلص من مياه المطر الزائدة ، وحفرت فيها الابار ، وادخلت على زراعتها الوسائل الحديثة ، وانشئت الوحدة المجمعمة للعلاج والتعليم والخدمة الاجتماعية ، وعرف الفلاحون كيف يطلون بيوتهم من الداخل بالطين والروث حتى تغدو الجدران والارضية صماء ملساء ليس فيها شق واحد للحشرات . واخيرا اقبل « جاتان » للمعاونة بجبرته الطبية ، مضجيا بالعمل فى عيادة ابيه الطبيب الكبير فى بومباي

و « جاتان » - فى رأى « ليفى » - شاب بارع قوى وسيم مثقف .. وانها لفخور بحبه ، ولكنها لا تدرى سر تردده فى مصارحة ابيها بهذا الحب . لقد اعتادت ان تراه يناقش اباها مناقشة الند للند فى مختلف الشؤون ، فلماذا يجبن عن مناقشته فى اهم شأن يخصهما معا ؟!

وانها لا تجد اية غرابة فى حبه ل « جاتان » .. اية غرابة فى ان تحب شابا هندية وقد عاشت حياتها فى صميم الهند ؟ .. ان الوطن فى رايها ليس مجرد دماء تجرى فى عروقها او لونا ابيض يميز بشرتها .. وانما هو الارض التى تعيش عليها ، والهواء الذى تننفسه ، والطعام الذى تاكله ، والعادات التى تتمسك بها وتألّفها ، والناس الذين تعيش بينهم يوما بعد يوم وعاما بعد آخر .. وعلى هذا الاساس فان الهند تعتبر وطنها الاول ، فاية غرابة او شذوذ فى ان تحب شابا هندية او ترغب فى الزواج من شاب هدى ؟!

وقد يحدث فى بعض الاحيان ان يضيق الانسان بالمكان الذى يعيش فيه ، حتى لو كان فى داخل الوطن .. ولكن « ليفى » لم تشعر يوما بالضيق من الحياة فى فاهى . بل على العكس .. لقد كانت تحب كل شىء فيها ، وكذلك امها .. كانتا تحبان الاشياء والمظاهر الصغيرة التى تطبع فاهى بطابعها . كانت كل منهما مثلا تضحك وهى ترى معارك النسائيس والقردة على الاشجار ، او صباحها وثروتها فى الصباح الباكر ، وازيز طواحين الغلال، ووسوسة الاساور والخلاخيل الفضية فى ايدى الفتيات الهنديات واقدامهن ، وهن يرحن ويشدين حاملات الجرار .. وكركرة المغازل اليدوية ، لان كل فرد فى أنحاء الهند كان قد تعلم الغزل ليعمل مدة ساعة على الاقل فى اليوم ليصنع ثوبا من الخيوط القطنية المحلية بناء على رغبة غاندى الذى اصبح روح الهند الكبرى ..

وقطعت الام حبل الصمت بقولها :

- واحب ان اوضح لك يا « ليفى » اننى شخصيا غير موافقة على هذه الرغبة فى زواجك من « جاتان » لاننى لا استطيع ان اقتنع بفكرة زواج فتاة امريكية بيضاء بشاب هدى .. ان « جاتان » لا ينحدر حتى من اب انجليزى

فقالت « ليفى » وهى تكتم سخطها :

- انك تتحدثين عنه كما لو كان من طائفة المنبوذين .. !

فاحتجت امها قائلة :

- « ليفى » ؟ .. كيف تقولين هذا بعد كل ما فعله ابوك من اجل هذه الطائفة .. لقد آمن ابوك بصدق غاندى واخلاصه ، عندما علم ان هذا الزعيم اختار فتاة من طائفة المنبوذين وتبناها كابنته . وانت .. الم ترى بنفسك اكثر من مرة اننى لا افرق فى المعاملة بين المنبوذين وغيرهم ؟!

وقالت « ليفى » بلهجة الذى قرر امرا :

- لقد اتفقت مع « جاتان » على الزواج ..

فهزت الام كتفيها فى ياس وقالت :

- اذن لا تدعيني اخبر والدك بهذا الامر

اكون موضع تانيبه لسبب كهذا !



فقلت « ليفى » بعزم :

— حسنا .. لسوف اقوم انا و « جاتان » باخباره ..

فتأوهت الام وقالت :

— أوه ، ويحى .. ان هذا الخبر سوف يقتله لانه يحبك انت

أكثر من حبه لجميع اخوتك !

فتساءلت « ليفى » قائلة ، وهى تطوى ثوب اختها بعد ان

فرغت منه :

— اذن ماذا افعل ؟!

فتنهدت الام قائلة :

— اننى لا ادرى .. فما كنت اظن ان شيئا كهذا يمكن ان يحدث

.. فانا شخصيا مهما بلغ حبي للهند ..

فاكملت لها « ليفى » العبارة قائلة :

— لا تستطيعين ان تحبى هنديا ؟

فقالت الام محتجة :

— لا .. ليس هذا ما اعنى .. فانا احب كثيرا من الهنود

والهنديات ، ومنهم « جاتان » ولكن ليس الحب الذى تعنيه انت ..

وهزت « ليفى » كتفها وغادرت الغرفة ..

وقالت الام لنفسها : « هذا مستحيل .. مستحيل .. ان ابنتى

ان تعيش حياتها كلها فى الهند .. ولكن كيف يمكنها ان تعيش فى

امريكا ؟! ان المجتمع هناك لن يفرغ لها زواجها من رجل ملون .

وان « جاتان » لن يستطيع ان يساعدنا فى شىء .. »

وكانت الشمس عندئذ قد اوشكت على الغيب ، وامتدت ظلال

الاشجار الضخمة على القرية .. وبدا الجو اقرب الى الظلمة منه

الى النور ، ومن ثم تسلمت « ليفى » منتعلة صندلها الصغير ، مرتدية

السارى الهندى ، وانطلقت فى طريقها الى المكان الذى اعتادت ان

تلقى فيه « جاتان » وهى تعلم انه فى انتظارها كالمعتاد ..

وظلت تسير بخفة ورشاقة غير خائفة مما قد يعترض طريقها

من افاعى وحشرات سامة . وكانت الامطار الموسمية لا تكف فى ذلك

الحين عن الانهمار ، الا انها فى تلك اللحظة كانت قد خفت كثيرا حتى

امست رذاذا ..

ولم تكن « ليفى » تشعر بالحرج من لقائها سرا ب « جاتان » ..
فقد كانت ترى فى هذا ضرورة لا مندوحة عنها حتى لا تعرض سيرتها
للمشائعات والتقولات . ولكن هذه السرية لن يكون لها مجال بمجرد
ان يوافق ابوها على خطبة « جاتان » لها .. انها عندئذ .. تستطيع
ان تلقاه فى اى مكان دون ان تخشى شيئا

اما « جاتان » ، فقد احبها اولا على سبيل اللهو والعبث .. كان
يعتقد انها تحبه بدافع من نزوات المراهقة الجارفة المتطرفة . وكان
هو شابا فى السادسة والعشرين ، رزينا ، متزن التفكير ، واقعى
الصرفات ، يعرف ان الامل بعيد فى زواجه من فتاة امريكية تنتمى
الى اكبر الاسر فى نيويورك . ولكن حبه الذى بدأ على اساس من
اللهو لم يلبث ان تحول الى حب كبير ، وهكذا راح يحلم باليوم الذى
يفدو فيه زوجا ل « ليفى » رغم جميع الفوارق العنصرية
ولما وصلت « ليفى » الى مكان اللقاء عند خميلة فى نهاية الحديقة ،
قالت له :

— ما اشد الظلمة ؟ .. لابد انى تأخرت عن موعدى ..

— نعم .. ولهذا يحسن ان نمكث هنا طويلا ..

وشعر — قبل ان تقول هى شيئا — ان الامور ليست كما ينبغى

ان تكون . ومن ثم نفر ، بفريرته ، عن الاقتراب منها ، او وضع

يديها بين يديه كالمعتاد ..

وقال بانفاس متقطعة :

— هل اخبرت والدتك ؟

— نعم .. وهى غير موافقة ..

— حتى هى ايضا ؟

— بل انها لا تجرؤ ان تفتح ابى فى الامر ..

فقال وهو يضع زمام الامر بين يديها :

— اذن ماذا نفعل ؟

— علينا ان نذهب معا الى ابى ونخبره ..

— انا وانت ؟!

— الا تريد ان تكون بجانبى ؟!

— اريد طبعاً .. ولكن كيف يكون الحال لو .. لو طردنى من

البيت ؟



— في هذه الحالة سأخرج معك ..

ورأت لظلال اليأس تطوف بوجهه الوسيم وهو يقول :

— هل تعتقدن أن الأمر على هذا النحو من البساطة ؟

فبهزت كتفيها وقالت :

— على كل حال ليس هناك ما يدعونا إلى أن نسبق الأحداث ..

فمن يدري ؟ فلعل أبى يكون أشفق علينا مما نظن .. انه شفيق بنا دائما ..

— نعم .. ولكن ونحن منفصلان !

— أوه !.. لماذا تستسلم لليأس بهذه البساطة يا « جاتان » ..

تعال معي ..

ثم أمسكت بيده ، ومضت به في الطريق إلى البيت !

كان « تيد » جالسا في غرفة مكتبه الصغيرة الهادئة ، وهي آخر غرفة في مجموعة غرف البيت ، لها باب يفضي إلى الساحة الصغيرة المؤدية إلى الحديقة الخلفية . وفي أحد جدرانها الخالية من النوافذ علقت صورة والدته « أوليفيا » التي أهداها إليه جده منذ أمد بعيد ، وكانت الهدية نصا في وصيته . وكذلك نص في هذه الوصية على أن يودع مبلغ كبير باسم الابن ، أو الابنة ، الأولى لـ « تيد »

وكان « تيد » قد راض نفسه على التفكير في « آنيز » كزوجة لآبيه . ولكنه لم يحاول أن يراها أو يرى أباه خلال هذه السنوات الطوال . ولم يكن في مقدوره أن يفعل هذا حتى لو أراد .. لان أباه لم يلبث بعد ثلاث سنوات من زواجه أن عاد إلى نيويورك واستقر في بيت الأسرة الكبيرة تاركا المؤسسة الضخمة التي أقامها في بوينا بين يدي مجلس إدارة من الهنود والأمريكيين

ولم يندم « تيد » يوما على زواجه بـ « روثي » .. إذ وجد فيها أكبر العون على أداء رسالته الإنسانية في قرية فاهي . ولم تحاول هي من جانبها أن ترحل عن القرية إلى أي مكان آخر ..

أما عمله في فاهي ، فقد أشاد به « داريا » في احتفال ضخم ، إذ قال : « ولقد أشعلت يا « تيدودور ماكارد » في هذه القرية نبراسا يضيء الطريق للبلاد كلها ، وقمت بأعمال يمكن أن يتم مثلها في كل

قرية بالهند إذا وجدت الرجال المخلصين الذين يكرسون حياتهم لخدمة بلادهم »

وكان حديث « داريا » في ذلك اليوم — وأمام عشرات الآلاف من الهنود الذين جاءوا من كل حذب وصوب — بمثابة وسام من أرفع الأوسمة التي يمكن أن يحلم بالحصول عليها انسان ..

وكان عدد كبير من البيض قد غادروا الهند ، بعد اعلان استقلالها الذاتي .. ولم يحاول أحد أن يستقيهم ، ولكن سكان فاهي ، ورجال الحكومة الوطنية ، الحوا على « تيد » للبقاء في فاهي حتى يتم رسالته الإنسانية الكبيرة . وكان « جهاز » الذي راح يجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، يأتي لزيارته بين الحين والآخر ، ويشيد بأعماله أمام السكان .. ويعلن أنه مهما فعل ، ومهما ضحى ، فإنه لن يصل إلى مستوى تضحيات « تيد » الذي ترك بلاده وثروته ، وحرّم نفسه من مباحج الحياة في أمريكا ليعيش بين القرويين في صميم الهند .. يأكل من طعامهم ، ويشاركهم الآمهم وأمالهم ..

وفيما هو يستعرض تاريخ حياته في الهند ، إذا به يسمع وقع أقدام تقترب من باب الغرفة . وانفجرت الستائر المسدلة على الباب ، وسمع صوت ابنته « ليفي » تقول :

— هل تسمح لنا بالدخول يا أبى ؟

وكانت « ليفي » تتحدث بالهندستائية ، ولكن أباه ردا بالانجليزية قائلا :

— ادخلي ..

ولما رأى « جاتان » معها ، أردف قائلا في عطف :

— وانت أيضا يا « جاتان » .. ادخلي .. هل توقف المطر ؟

فقالت « ليفي » وهي تجلس :

— نعم .. ولكن الضباب كثيف ..

وقال أبوها وهو يرمقها بحب وحنان ، وقد لاحظ أنها لا ترتدى شيئا غير الساري الهندى :

— ماذا ستفعلين عندما تلتحقين باحدى الجامعات الأمريكية .. هل ستصيرين على ارتداء الساري هناك ؟

وانتهزت « ليفي » هذه الفرصة السانحة ، وقالت :

– اننى يا أبى لا أريد الذهاب الى أمريكا ..

وخامر « تيد » فى هذه اللحظة شعور عميق بالقلق ، جعله يقول :

– بل يجب أن تذهبى يا بنتى .. ان جدك سوف بغضب جدا إذا لم تستكملى دراستك الجامعية فى نيويورك ، كما أن والد جدك قد أودع باسمك مبلغا ضخما هناك ..

ونظرت « ليفى » الى « جاتان » فى توسل ، لكى يتحدث مع أبيها بدلا منها .. ولم يسع الشاب الا أن يتلع ريقه ثم يقول :

– سيدى .. اننا .. « ليفى » وأنا ، فى محنة شديدة .. لقد .. وقعنا فى الحب ، ونريد أن نتزوج ..

وقالت « ليفى » :

– نعم يا أبى .. هذا هو ما حدث ..

وأردف « جاتان » قائلا ، وقد تشجع بعد أن نطق بكلمة « الحب » الصعبة :

– ان ما حدث كان رغما عنا يامستر « ماكارد » .. وهو أمر

منطقي يتفق مع ماتعلمناه على يدك منذ الطفولة .. لقد علمتنا

يا سيدى أن ننظر الى الناس جميعا على انهم سواسية ، لا فرق بين

هندي وأمريكي ، وقد تعلمت فى جامعة ماكارد بيونا – يا سيدى –

اننا جميعا أبناء الله ، وأن الله لا يفرق بين أبنائه ، ولا يحاسبى

احدهم لانه ابيض ، ولا يكره الاخر لانه اسود .. ولهذا فانى احببتها

وأنا مطمئن الى أنك لن تعارض فى هذا الحب !

وحملق « تيد » فى وجه الشاب المتوسل ، ثم نظس الى يديه

المبسوطتين ، وقد بدا بياض الكفين فى تنافر شديد مع سمرة البشرة

وفجأة أحس « تيد » بنوبة من النفور العنيف ، وهو يتصور ابنته

« ليفى » .. ابنته الحبيبة التى ورثت الشئ الكثير من جمال

والدته « أوليفيا » ، زوجة بين أحضان هذا الشاب المحترق

البشرة !..

لا .. ان هذا لا يمكن أن يحدث .. لقد وهب حياته حقا للهند ،

ولكنه ليس على استعداد لان يهب ابنته الكبرى أيضا . ان من حقها

ان تعيش فى وطنها الحياة الجديرة بها .. ماذنبها لكى تقضى بقية

حياتها فى هذا الجؤ الملىء بالامراض والايوثة ؟ لا .. لن يستطيع أحد ان يقنعه بقبول هذه التضحية .. ان القديسين انفسهم يرفضون هذا .. وان السيد المسيح لو كانت له ابنة ، لما قبل هذه التضحية راضيا !

وهكذا قال بصوت اشبه بانفجار القنبلة :

– لا .. لن أسمح بهذا ..

وتراخت يدا « جاتان » على جانبيه ، ونظر الى « ليفى » فى ياس كأنما يقول لها : « اليس هذا ماكنت أتوقع ؟ » .. اما هى فقد بدا الغضب والاصرار فى عينيها ، ولكن أباهما بادرها قائلا :

– « ليفى » !.. هل اخبرت والدتك ؟

– نعم .. وقد قالت انها لا تجرؤ ان تخبرك .. ولكننى جرؤت !

فتنهض واقفا وقال بغضب متزايد :

– اين هى ؟ .. اين هى الان ؟

وغضت « ليفى » بريقها قبل أن تجيب :

– انها .. انها فى غرفة الخياطة ..

وتوقف الوالد برهة ، وراح ينتقل بنظراته من وجه ابنته الى

وجه « جاتان » .. وأراد ان يقول شيئا ، ولكنه عاد وزم شفثيه ،

ثم غادر الغرفة بخطوات سريعة نائرة

وماكادت الستائر ان تسدل على الباب بعد انصرافه ، حتى

بسطت « ليفى » ذراعها الى « جاتان » هاتفة :

– جاتان .. حبيبى .. اننى لن اتخلى عنك أبدا .. !

ثم أردفت قائلة بأنفاس لاهثة :

– « جاتان » .. ان الحياة عقيدة ، وأمل ، وحب .. ولكن

الحب أقواها .. وأعظمها !..

وأدار رأسه فى حزن وقال :

– ولكن ليس حيننا !..

فقالت باصرار ، وهى تطوق رأسه وتضمه على صدرها :

– بل وحيننا أيضا !..

وراح يسمع – تحت خده – نبضات قلبها المتألمة

الفصل الحادى عشر

عذارى المتبد

- قال « تيد » فى اصرار وهو يتحدث مع زوجته :
- انك تدين ان هذا مستحيل ..
- فقالت وهى لا تزال تعمل بابتها فى رتق الملابس :
- نعم ، نعم .. اننى أفتق معك . ولكن .. ماذا تنوى ان تفعل ؟
- فقال وهو يزداد اصرارا :
- سأحجز تذاكر سفر الى امريكا فى اول باخرة تغلق من بمباى ..
- لسوف نرحل جميعا .. وسوف الحق «ليفى» بمدرسة عليا داخلية للبنات ..
- ان «ليفى» لم تعد صغيرة .. انها الان ناضجة مثل فتيات هذه المناطق الحارة
- انها فى رأى لا تزال طفلة فى السن وفى التفكير .. وعندما تذهب الى امريكا سوف تفكر بعقلية البنات الامريكيات ..
- وصمت برهة فى انتظار ردها .. وطال الصمت .. واخيرا قال :
- حسنا ! .. هل لديك فكرة اخرى ؟
- فردت قائلة :
- لا .. كل ما اعرفه اننى لا احب مفادرة فاهى .. ولكننى اعتقد انك على حق يا «تيد» .. يحسن بنا ان نبعدها عن الهند !..
- هل ستخبرينها انت أم اخبرها انا ؟
- يحسن ان تقوم انت بهذه المهمة ..

وفى الغيلة التالية ، كان جالسا فى الشرفة الكبيرة بين قبة القبة

وهي تلاعب اختها الصغرى «ساره» بالكرة . وكان يعرف أن «ساره» الصغيرة تحب اختها الكبرى «ليفى» الى حد العبادة ، ولا تكاد تطيق فراقها لحظة ، أما ابناؤه الثلاثة ، فكان قد أرسلهم الى مدرسة داخلية في نيويورك

واستدعى اليه «ليفى» .. فلما أقبلت هادئة ، ناضرة ، قال لها مشيرا الى مقعد مريح امامه :
- اجلسى هنا

وصاحت «ساره» فى احتجاج قائلة :
- ان الليل يوشك أن يزحف علينا ، ولن نستطيع مواصلة اللعب .. !

فقال لها الوالد :
- تعالى انت ايضا يا «ساره» واجلسى ..
فقال الصبية فى جزع :
- لماذا .. ماذا فعلت يا أبى ؟
- لا شيء ..

وقالت «ليفى» لها :
- أنا التى فعلت شيئا .. لقد ارتكبت خطأ ، وأبى الآن سيعاقبنى .. !

فقال «ساره» فى احتجاج :
- ان «ليفى» يا أبى لا تخطيء .. انها لم تخطيء أبدا .. !
وقال الوالد :

- لا اعتقد أن السفر الى امريكا يعتبر عقابا يا «ليفى» .. وهذا ما سأفعله .. لقد ارسلت خطابا الى شركة البواخر فى يومى اليوم لتحجز لنا تذاكر السفر الى امريكا على أول باخرة .. واعتقد ان الامر لن يستغرق اسبوعا ..

ولما بدا السرور على وجه «ساره» التى كانت تحلم بالسفر الى هذه البلاد التى لم ترها رغم كل ما سمعته عنها ، قال الوالد :

- ليست هذه انباء سارة يا «ساره» ؟
ولكن «ليفى» اسرعت تقول فى ثورة مكتوبة :
- لا يا أبى .. هذه ليست انباء سارة ..

وهنا هفت «ساره» قائلة :

- مادام هذا هو رأى «ليفى» ، فهو رأى أنا ايضا يا أبى .. !
فقال الوالد :

- لسوف نسافر على كل حال .. وسنقتى هناك عاما ، ولكن «ليفى» ستبقى اربعة اعوام حتى تتخرج فى الكلية .. ولعلها بعد ذلك تنزوح شابا امريكيا !

فصاحت «ساره» محتجة :

- لا .. لا .. والا كيف ستعيش معنا فى فاهى بعد ذلك ..
- لعلها بعد أن تنزوح لا ترغب فى الحياة مرة اخرى فى فاهى ، ان الحياة فى امريكا رائعة .. الشوارع الناعمة ، والسيارات الفاخرة ، والمراقص والملاهى ، والملابس الانيقة .. وربما الرحلات الى انجلترا وفرنسا صيفا

ووثبت «ليفى» واقفة وقالت :

- هل تأذن لى بالانصراف يا أبى ؟!
- طبعاً .. طبعاً .. تعالى انت يا «ساره» واجلسى على حجرى لاحدك بالمزيد عن الحياة فى وطنك ..
وفيما كان يتحدثها عن الحياة فى امريكا ، كان ثمة نفحات حزينة تنساب من مكان ما فى الظلام المنسدل على فاهى ..

وفى الظلام ، سارت «ليفى» بخطوات رشيقة سريعة غير حافلة بالافاعى أو الحشرات السامة . وكانت تعرف أن «جانان» سيكون فى مثل هذه الساعة بمفرده فى مسكنه القريب من العيادة ، وان عليها ان تذهب اليه لكى تثير فى نفسه روح المقاومة والكفاح . لقد حاولت فى الليلة الماضية ، بعد انصرافه من غرفة أبيها أن تدفعه ، ولكنه قال لها يائسا :

- لا .. لا .. ان هذا لن يكون .. أبدا ..

ولكن ، الليلة ، لا بد ان يعرف ان على الانسان أن يكافح فى سبيل ما يريد ، وان يقاوم كل عوامل اليأس ، وان يتركه لاشيء مستحيل ما دام هناك أمل ..

واندفعت تجرى بحافز من الخوف والحب والالتفات الى الافاعى



والحشرات السامة التي تخرج زاحفة من مكانها ليلا ، والحب الذي لا بد ان يتوج بالزواج ..

وصعدت الدرجات الثلاث المؤدية الى الشرفة الامامية لمسكنه الصغير ، ثم طرقت على الباب الذي كان بصيص من الضوء ينساب من فتحة العليا .. وما لبث ان فتح « جاتان » الباب ، فلما رآها هتف مدهوشا فرعا :

« ليفى » ؟ .. ماذا جاء بك الى هنا ؟

« دعنى ادخل ! .. »

وازاح لها الستائر الثقيلة المسدلة على المدخل ، وسمح لها بالدخول وهو يهمس قائلا :

« يجبان اطفئ المصباح حتى لا يراك احد .. ولعل احدا قد راك وانت قادمة .. »

« اننى لم اعد اهتم بأحد ، بعد ان عرف والداى الامر

فلما رآته مترددا ، اردفت قائلة :

« حسنا .. لسوف نجلس هنا ، فى الردهة .. فى الظل .. ولن يرانا احد من الخارج .. ولن يطول بى البقاء يا «جاتان» ما دمت

خائفا . ولكن يجب ان اخبرك بما حدث .. ان أبى أرسل يحجز تذاكر لسفرنا الى أمريكا على أول باخرة . وسوف يعود هو بعد عام

اما انا فسأبقى هناك اربعة اعوام ، اربعة اعوام يا «جاتان» .. ثم كيف آتى بعد ذلك الى فاهى اذا لم يسمح لى بالحضور ؟ لهذا كله يجب

يا «جاتان» ان تلج فى مطالبتك بزواجى ، او يجب ان تتزوج سرا لنضع الجميع امام الامر الواقع !

فقال «جاتان» بصوت كله الحزن والتأثر :

« كيف تتزوج سرا يا «ليفى» ؟ ان زواجنا لا بد ان يتم على يد القنصل الأمريكى فى بونا . وبطبيعة الحال سوف يخبر القنصل أبك

قبل ان يعقد قراننا .. لا يا «ليفى» ؟ ليس امامنا الا ان نستسلم لقدرة ونفترق !

« وعضت على شفتها ، وقالت وهى تضحك بوجهها :

« كنت اعرف انك ستقول هذا .. كنت اعرف ان المشجاعة تنقص ، ولست أدري لماذا أحببتك !

وقال هو فى ذلة :

« ولا انا .. !

وجلس الاثنان جنبا الى جنب فى للال الردهة . وخيم الصمت عليهما وهما يقتربان حتى تلامس جسدهما .. وكانت أول مرة تأتى فيها «ليفى» الى مسكنه .. فى الليل . واحس بجسمها ، تحت

السارى الرقيق ، دافئا بجانب جسمه .. ومد يده وتناول يدها وراح يمسح عليها برفق ، ثم بسط ذراعه الاخرى وطوى خصرها ..

ومالت براسها على كتفه ، وارتفعت يده التى كانت تدلك يدها الى ذراعها .. ثم الى عنقها .. وهبطت الى صدرها .. ثم اسقطت

السارى عنها ..

وتنهض واغلق باب المسكن بالرتاج من الداخل ، وعاد الى الصباح فاطفاه ، ثم جلس بجانبها ، ملتصقا ، وهمس قائلا :

« والآن .. ما رايك يا «ليفى» ؟

وسرت فى جسدها رعدة خفيفة وهى تطوق عنقه بذراعيها ، وضغطت بشفتيها على شفتيه فى قبلة طويلة ..

وحملها بين ذراعيه الى الداخل .. وقد خيل له ان هذه الليلة ستكون آخر ليلة يلتقيان فيها ، وانها ستكون نهاية الحب

اليأس الذى يعتبره هو أسوأ واخطر انواع الحب ..

ولكنها لم تكن النهاية .. وانما كانت بداية احدى عشرة ليلة .. فى كل ليلة منها كانت «ليفى» تتظاهر بالنوم فى غرفتها امام الخادمة

الهندية الخاصة ، ثم تنهض تتسلل فى سكون الليل ، وتنتقل الى مسكن «جاتان» ، عارية القدمين ، مطمئنة الى ان آلهة الحب سوف

تحميها من الافاعي والحشرات السامة

وكانت فى أول الامر تشعر بالفزع من هذه الهاوية التى تردت فيها . ولكنها لم تبذل أى جهد لكى تمنع نفسها من الاستمرار فى السقوط

فيها ، ليلة بعد ليلة ، بلا انقطاع .. وقد حاولت كثيرا ان تتذكر الوصايا العشر ، وان تستعيد فى ذهنها معانى الطهارة والعفاف وكبت

النفس . ولكنها ، مع ادراكها لهذه المعانى كلها ، وعلمها بانها معان مشرفة رائعة ، فقد ظلت تتسلل كل ليلة الى مسكن جاتان كاية بنت

من بنات الهوى ..

وبكى هو .. ولكنه لم يفتح الباب .. !
وأخيرا سمع وقع أقدامها وهى تهبط الدرجات الثلاث فى طريقها
الى .. المجهول .. !

وأخذت الباخرة تتبعد عن شاطئ بومباى فى طريقها الى أوروبا
ثم الى نيويورك . وظل «تيد» واقفا يرقب آخر شعاع من أشعة
الشمس وهو يفتب وراء الموج ، ثم قال لزوجته الواقعة بجانبه :

— أين «ليفى» ؟

— فى مقصورتها ترتب الملابس بالخزانة ..

وهنا قال وهو يرى المسافة تتسع بين الباخرة والشاطئ :

— حسنا . لقد استطعنا أن نحملها بسلام بعيدا عن الهند ..

فقالت « روثى » بهدوء :

— اعتقد هذا ..

وخيل اليه أن فى صوتها رنة شك خفيفة ، ولكنه لم يحاول أن
يعرف سبب هذا الشك . وصلصل جرس العشاء فى أنحاء الباخرة ،
ووصل رنينه الى الردهات والاسطوح ، وهنا قال «تيد» :

— الواقع اننى أشعر بالجوع ..

— اذن هلم نمضى الى قاعة الطعام ..

فتحرك بجانبها مرسلا بنظراته الاخيرة الى الشمس الغاربة ، ثم
قال فجأة :

— أرجو ان تكون «ليفى» قد اقلعت عن ارتداء السارى ..

فقالت « روثى » :

— لقد طلبت منها الا ترتدى الملابس الهندية بعد اليوم ..

— وهل عارضت ؟

— لا .. قالت انها قررت هذا من تلقاء نفسها

— حسنا .. هيا الى قاعة الطعام ..

وجلست «ليفى» على السطح الاعلى للباخرة بمفردها فى سكن
الليل . وكانت أضواء الباخرة تتراقص على سطح البحر الهادئ ،
ولكن «ليفى» لم تكن تراها ، بل ولم تكن ترى البحر ، وانما كانت

ولكنها ، مع هذا كله ، لم تحاول أن تخلط بين الاله الذى يعبده
أبوها ، وتعبدته هى ، وبين بعض الآلهة التى يعبدها بعض السكان فى
المعد .. المبد الضخم المقام فى بونا ، وليس فى فاهى . وكانت تعرف ،
كما يعرف الجميع ما يجرى داخل هذه المعابد تحت ستار الدين ،
وكيف أن الكهنة يختارون عذارى معينات ليعاشروهن معاشرة جنسية
زاعمين أنهم ينقلون الى اجسادهن اقباسا من ارواح هذه الآلهة ..
وكانت «ليفى» تشعر فى كل ليلة ، وهى ترتب بين ذراعى «جاتان» ،
انها لا تزيد فى شئ عن واحدة من هؤلاء العذارى .. عذارى المعبد !

وفى الليلة الاخيرة التى تقرر السفر الى بومباى فى صباحها ،
اقبلت «ليفى» الى «جاتان» ولكنهما لم يمارسا الحب على طريقة
عذارى المعبد ، وانما جلسا جنبا الى جنب ، وراحا يتبادلان الحديث
همسا وقد تعلق كل منهما بالآخر . وأخيرا قال «جاتان» معربا عن
مخاوفه :

— كيف يكون الحال يا «ليفى» اذا .. اذا وضعت طفلا ؟

فهمت قائلة :

— هذا ما أرجوه ..

— لا يا «ليفى» .. ان هذا آخر شئ أرجوه فى حياتى . ولكن اذا
حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فأرجوك أن تتخلصى منه ..

— بل سأحتفظ به حتى اعود اليك ..

— أرجوك .. بل أمرك .. اننى لا استطيع ان اعيش فى سلام وانا
عاجز عن احتمال عبء وجود ابن لنا معك ..

— ولكن ماذا يمكننى ان افعل فى هذه الحالة ؟

— اعطيه لاي شخص أسود فى بلادك .. لسوف يكون أسود
مثلى .. دعيه يعيش حياته بعيدا عن عذاب الشك والحيرة ..

وبعد برهة صمت ، قال مستطردا وهو ينهض :

— هذه هى النهاية يا «ليفى» .. لقد انتهى كل شئ ، ولكننا انتزعنا
من القدر شيئا .. وداعا يا «ليفى» ..

ثم اغلق الباب بعد ان انصرفت .. ولكنه سمعها وهى تعتمد
برأسها على الباب من الخارج .. وبكى ..

تعبّر بنظراتها المسافات لتصل الى فاهي .. الى «جانان» وهو وحيد في بيته الصغير . انها تعلم انه الان سيكون مشغولا كعادته بقراءة كتبه ، او بتناول طعام عشائه البسيط ، او بجولته الاخيرة على الارض في المستشفى القريب من مسكنه ..

واحست بالالام يعصر قلبها وهي تتذكر موقف ابنيها من غرامها .. لو كانت تعلم ان اباه لا يزال يؤمن بالفرقة العنصرية رغم كل ما بذله من خدمات للهند ، لتربت في اندفاعها الى هذا الحب ، ولشبت منذ طفولتها وهي تعلم سلفا ان مكانها في النهاية سيكون في بلادها الاصيلة ، وليس في البلاد التي نشأت فيها !

ولكن «جانان» لم ينخدع بابيها .. كان ذكيا .. وكان يعرف ان ما يبذله هذا الامريكي في سبيل الغير شيء ، وايمانه بالفرقة العنصرية شيء آخر . ولهذا فقد اتسم في اشفاق حين قالت «ليفى» في اول مناقشة دارت بينهما في هذا الشأن :

«جانان» .. اؤكد لك ان ابي سيسعد بهذا الخبر .. انه يجبك ويقدرك وسيرحب بك كابن ..

ولما صمت ، عادت تقول في لهجة اتهام :

«الا تؤمن بابي ؟

«اننى اثق به .. واعرف ان روحه تهفو الى اسمى ما يمكن ان تصل اليه البشرية من كمال انساني ، ولكن جسمه لا يزال ملتصقا بجزء الارض ، بينما عقله حائر بين الاثنين .. انه يؤمن بمثله العليل ويرى انها ضرورية ، ولكنه يقول ان تحقيقها يحتاج الى زمن طويل لا بد ان تمر به البشرية اولا . وقد فاته ان الانسان الذي لا يحاول تطبيق مثله العليل فوراً ، فانه يفقدها !

ومرت الايام رتيبة .. وبدأت «ليفى» تشترك في حياة الباخرة الاجتماعية ، وقد اتار صوتها العذب - وهي تردد بعض الاغنيات الهندية الشجية - اعجاب ركاب الباخرة جميعا ، فكانوا يلحون عليها في بعض الامسيات لكي تغنى لهم ..

ولم يسع «ليفى» الا ان تتجاوب تدريجيا مع الركاب ، وهم يزدادون افتتاناً بها يوماً بعد يوم . وكانت عبارات المديح والاطراء

لصوتها وجمالها ورشاقها تتردد في اذنيها بلا انقطاع كلما غادرت مقصورتها .. ولكنها حاولت بقدر ما تستطيع ان تظل على وفائها لـ «جانان» .. ومن ثم كانت تنهز كل فرصة سانحة لتهرب الى ركن في اعلى سطح الباخرة ، وتفرد بنفسها ، وتفكر في «جانان» .. وتتمنى ان يكون قد حدث شيء يربطها به ويعيدها اليه في المستقبل ..

ولكنها استيقظت ذات يوم متوعكة ، وقد ادركت ان هذه الامنية الاخيرة لم تتحقق .. فلما دخلت امها ووجدتها تبكي ، سالتها :

«ماذا بك يا «ليفى» ؟!

وحاولت «ليفى» ان تجفف دموعها وهي تقول :

«لا شيء يا اماه .. اننى اشعر بتوكل .. بسبب هذه الدورة الشهرية اللعينة ..

«ولكن لماذا تبكين .. انها مسألة عادية لا تستحق البكاء ؟

«الا يبكي الانسان احيانا بلا سبب يا اماه .. ؟

«الا انت يا «ليفى» ..

وهزت الفتاة كتفيها ، واغمضت عينيها ، وهنا بسطت «روثى» الفطاء عليها بحنان وهي تقول :

«ارجو ان تشعرى بالدفء بعد قليل .. لسوف ارسل اليك طعام الافطار هنا ..

وانصرفت الام وهي تنتهد في ارتياح شديد !

ولا يعرف احد لماذا تنهدت بكل هذا الارتياح .. !

الانها كانت تعرف شيئاً وتخشى العواقب ..؟! ..

ام لان كل شيء قد انتهى اخيراً .. على خير ؟!

انتهت

هذه الرواية



المؤلفة

* بيرل بك كاتبة
كبيرة أمريكية المولد

تزوجت معظم أيام
حياتها في الشرق الأقصى

* أول رواية كتبها
هي رواية « ربيع الشرق »
ثم كتبت « ربيع الغرب »
ثم « الأرض الطيبة »
وبعدها روايات أخرى
كثيرة

* تعمل مستشارة
لاحدى دور النشر الكبيرة
وتقوم بتدقيق الكتب في
مجلة « آسيا وأمريكا »

* حائزة على جائزة
بوليتزر ، وجائزة نوبل

تقدم لنا الروائية العالمية « بيرل بك » -

مؤلفة رواية « الأرض الطيبة » - في هذه

القصة الممتعة ، صورة حية مشيرة للحياة في

الهند قبل الاستقلال وبعده ..

انها ترسم هذه الصورة ببراعتها المألوفة

من خلال ثلاثة أجيال في احدى العائلات

الأمريكية الوفيرة الثراء التي آثرت ان تقيم

بالهند .. وكان لكل من هذه الأجيال هدف

خاص . كما كانت له نظراته الخاصة

واتصالاته المتباينة بأبناء الهند وبناته

وقد تضمنت هذه الإنصالات احدا

يحتدم فيها الصراع بين الحب النبيل وبين

التعصب العنصرى .. ترى هل كان النصر

حليف الحب ام حليف التعصب وسسطة

العادات والتقاليد ؟ .. هذا ما سيراه

القارى، وهو يطالع هذه الرواية الشائقة ..